

سير و تراجم

العيش على الحافة

شكرى محمد عياد





العيش على الحافة



٢٠١٢

تنفيذ

الهيئة المصرية العامة للكتاب

العيش على الحافة

شكرى محمد عياد



عياد، شكرى محمد

العيش على الحافة/ شكرى محمد عياد

ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢.

١٦٨ ص: ٢٤ سم

تدمك ٧ ـ ١٦٤ ـ ٢٠٧ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨

١ ـ القصص العربية القصيرة

(أ) العنوان

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٥٧٠/٢٠١٢

I.S.B.N 978-977-207-164-7

ديوى ٨١٣،٠١

توطئة

مشروع له تاريخ

مشروع «القراءة للجميع» أى حلم توفير مكتبة لكل أسرة، سمعنا به أول مرة من رائدنا الكبير الراحل توفيق الحكيم.

وكان قد عبر عن ذلك فى حوار أجراه معه الكاتب الصحفى منير عامر فى مجلة «صباح الخير» مطلع ستينيات القرن الماضى، أى قبل خمسين عامًا من الآن.

كان الحكيم إذًا هو صاحب الحلم، وليس بوسع أحد آخر، أن يدعى غير ذلك.

وهو، جريًا على عادته الخلاقة فى مباشرة الأحلام، تمنى أن يأتى اليوم الذى يرى فيه جموعًا من الحمير النظيفة المطهمة، وهى تجر عربات الكارو الخشبية الصغيرة، تجوب الشوارع، وتتخذ مواقعها عند نواصى ميادين المحروسة، وباحات المدارس والجامعات، وهى محملة بالكتب الرائعة والميسورة، شأنها فى ذلك شأن مثيلاتها من حاملات الخضر وحبات الفاكهة.

ثم رحل الحكيم مكتفيا بحلمه.

وفى ثمانينيات القرن الماضى عاود شاعرنا الكبير الراحل صلاح عبد الصبور التذكير بهذا الحلم القديم، وفى التسعينيات من نفس القرن، تولى الدكتور سمير سرحان تنفيذه تحت رعاية السيدة زوجة الرئيس السابق. هكذا حظى المشروع بدعم مالى كبير، ساهمت فيه، ضمن من ساهم، جهات حكومية عدة، وخلال عقدين كاملين صدرت عنه مجموعة هائلة من الكتب، بينها مؤلفات ثمينة يجب أن نشكر كل من قاموا باختيارها، إلا أنه، للحقيقة ليس غير، حفل بكتب أخرى مراعاة لخاطر البعض، وترضية للآخر، ثم إن المشروع أنعش الكثير من متطلبات دور النشر، بل اصطنع بعضها أحيانًا.

وبعد ثورة ٢٥ يناير والتغيرات التى طرأت توقفت كل الجهات الداعمة لهذا المشروع الثقافى عن الوفاء بأى دعم كانت تحمست له عبر عقدين ماضيين، سواء كانت هذه الجهات من هنا، أو كانت من هناك.

ولم يكن أمام اللجنة إلا مضاعفة التدقيق فى كل عنوان تختار، وسيطر هاجس الإمكانات المحدودة التى أخبرتنا بها الهيئة فى كل آن.

والآن لم يبق إلا أن نقول بأن هذه اللجنة كانت وضعت لنفسها معيارًا موجزًا:

جودة الكتاب أولاً، ومدى تلبيته، أولاً أيضًا، لاحتياج قارئ شغوف بأن يعرف، ويستمتع، وأن ينمى إحساسه بالبشر، وبالعالم الذى يعيش فيه.

واللجنة لم تحد عن هذا المعيار أبدًا، لم تشغل نفسها لا بكاتب، ولا بدار نشر، ولا بأى نوع من أنواع الترضية أو الإنعاش، إن لم يكن بسبب التربية الحسنة، فهو بسبب من ضيق ذات اليد.

لقد انشغلنا طيلة الوقت بهذا القارئ الذى انشغل به قديمًا، مولانا الحكيم.

لا نزعم، طبعًا، أن اختياراتنا هى الأمثل، فاختيار كتاب تظنه جيدًا يعنى أنك تركت آخر هو الأفضل دائمًا، وهى مشكلة لن يكون لها من حل أبدًا. لماذا؟

لأنه ليس هناك أكثر من الكتب الرائعة، ميراث البشرية العظيم، والباقى.

رئيس اللجنة

إبراهيم أصلان

أبناء الصلب زرقت منهم ثلاثة

أبناء الرأس بلا عدد(*)

أنت يا عطية المجهول، الابن الوحيد الذى لم أزل أحلم به منذ ألف سنة، منذ سبعة آلاف سنة، منذ سبعين ألف سنة، لك يا بنى أكتب هذه الصفحات. قصة فرد من القبيلة شرد نحو المجهول، وعندما اشتبهت عليه السبل واختلط أمامه الشاهد بالغائب والحاضر بالماضى جعل يلقى فى حجرك بكل ما جمعه فى مسيرته الطويلة ولو أنه حصى وتراب، وأنت يا بنى حلمه الذى عاش به وله، وأنت لا تسأم السعى فى الطرق المجهولة والبحث فى الحصى والتراب لعلك تعثر يومًا على جوهرة الزمن.

(*) كان أستاذنا أمين الخولى يسمى التلاميذ أبناء الرأس، وفى أساطير اليونان أن أثينا إلهة الحكمة ولدت من رأس زوس كبير الآلهة.

لماذا أكتب قصة حياة هذا الإنسان؟ لقد ظل السؤال يلح علىّ، حتى بعد أن قطعت فى مشروع الكتابة ذاته شوطًا غير قصير.. وكان يقوم أمامى - كما يقوم العفريت من تحت الأرض - بالذات حينما أرتد بذاكرتى إلى موقف يخجل عامة الناس من ذكره (تجربة جنسية مثلاً) أقول لنفسى : إننى لا أفهم من السيرة الذاتية معنى الاعتراف، فلنترك هذه وأقول لنفسى أيضًا: إننى رجل ذو دين، أو هكذا أظن، وذو الدين مأمور أن يستتر بستر الله، راجيًا منه المغفرة، ولكنى أقول لنفسى أيضًا : لقد جئت من أصلاب معلمين، وقطعت الشطر الأكبر من حياتك معلمًا، وأبناء هذا الزمان مكرة، لا يصدقون - كما كنا نصدق أو نكذب على أنفسنا حتى نصدق - أن آباءهم ومعلميهم كاملون فى كل شىء، فلن يصدقنى قرائى إذا طويت هذه الصفحات المخزية، وقدمت إليهم نفسى على أنى مثال للفضيلة، هذا مع أنى حرصت عمرى كله على أن تبقى صفحتى نقية من كل ما يشين، ربما خوفًا من شماتة الأعداء وخيانة الأصدقاء، أو ربما جنبًا عن ارتكاب المحرمات، وهذا أمر يحتاج إلى بعض الشجاعة ومع أن إبليس اللعين لا يزال يخترع كل يوم من أسباب الغواية ما يشوقنا إلى المغامرة، ويفتح من أبواب الفرار ما يهون علينا ارتكاب الجرائم، فلن أكون منصفًا لنفسى، وقد حرمتها من متع كثيرة، إذ أشهّر بها لمجرد خطأ صغير (أو كبير) ارتكبته هنا أو هناك وأخيرًا أقول لنفسى: دعك من تصديق القراء أو تكذيبهم، ما الصورة التى تريد أن تعطيها لنفسك؟ لا الكذب وحده ولا الصدق وحده ولا أى مزيج منهما يمكن أن يجعل

لهذه الصورة قيمة تستحق تسويد الصفحات وإضاعة وقت القراء لابد أن يكون للأصل ذاته بعض القيمة إنهم يكتبون سير الأبطال، أبطال الحرب والسلم، أبطال السينما والكرة، كبار المجرمين وكبار العشاق، ولست من هذا كله فى شىء أقول لنفسى: ليكن هأنذا أشرف على نهاية القصة أمور كثيرة قد حدثت لى ولم أفقه معناها كما ينبغى، وأمور كثيرة كنت أتمنى أن تحدث ولكنها لم تحدث لماذا تبقى هذه وتلك معلقة بين الوجود والعدم؟ لو أننى استطعت أن أحولها إلى كتابة كتلك الكتب التى أخرجتها حتى الآن لما تركتها هكذا كالأرواح الشاردة، فهل أطردها وأنتهى منها؟ أحاول ذلك ولكن يخالجنى شك أنها ربما كانت أهم من كل شىء قيدته بالكتابة حتى الآن هل حقق أى إنسان على ظهر الأرض تلك الصورة التى خلقه الله عليها؟ فهل اخترع من أجل هذه العفاريت الحائمة، كتابة بلا كتابة؟ نوعًا من الحروف ـ مثلاً ـ يطير من على الصفحة رأسًا إلى عقل القارئ؟ وماذا تكون تلك الكتابة، وليس منها شىء واحد يمكننى أن أسميه إنجازًا نعم، سأدخل شئت أو لم أشأ، فى مرحلة الصمت المطبق، فهل أمرّ الآن بإرهاصات تلك المرحلة؟ أريد نوعًا من الكتابة يكون حقًا صلة بينى وبين قارئى، لا حاجزًا بينى وبينه أريد تلك الدرجة من الصدق التى تسبق الصمت مباشرة لا أريد أن «أصنع» شيئًا، أريد فقط أن أظهر كل ما خفى من أمرى وفكرى هذه كتابة من نوع مختلف كل كتابة حاولتها قبل اليوم كان فيها قدر كبير أو صغير من الصناعة، مهما قلت، تفسد الكتابة كلها تجول فى خيالى صورة ما، فأقول لنفسى: هذا موضوع قصة، أو هذا موضوع رواية أو مسرحية أو قصيدة أترك الصورة تجذبنى، تأسرنى، ولكنى فى الحقيقة أمكر بها وأخاتلها حتى تقع فى شبكتى تخطر لى فكرة، فأروح أبحث فى الكتب، وأستخرج الأشباه والنظائر، والأسباب والنتائج، والاختلافات والنقائض، وأحكم الاستراتيجيات والتكتيك حتى أوقع الهزيمة بالخصم وأظفر بتصفيق القارئ سئمت كل هذا أريد أن أحدثك أيها القارئ كما أحدث نفسى ما هذا؟ أريد أن أقول: إنى حين أحدثك، حينئذ فقط يمكننى أن أصل إلى نفسى هذا إن استطعت أن أحدثك بكل الصراحة، بكل الصدق الذى أريد ولماذا لا أفعل؟ إننى أقف عند الحافة الحرجة بين الكلام والصمت بين الحياة والموت أو بين الموت والحياة.

زارنى - قبل شهر أو شهرين - زائر غريب كانت ساعة فجرية، ورأيته واقفًا فى ركن الحجرة لم أدر كيف دخل ولا متى ولكنى قلت فى نفسى إنه هو كان يلبس بذلة «سفارى» ولكن من نوع رخيص لا أظنه ينتج هذه الأيام، وكان يسمى «الكزمير»، وهو عكس الكشمير فى كل شىء انظر كيف يمكن أن يصنع حرفًا واحدًا. مدرسة براج عندها حق نظرت، ولكنى فى غبشة الفجر وضعف بصرى لم أتبين ملامح الزائر وكان أكبر ما يهمنى نظرة عينيه تبينت فقط أنه صغير الجسم - ليس إلى درجة الضآلة - وأنه أسمر وحركاته هادئة جدًا وليس فى تصرفاته، حتى ذلك الوقت، ما يجعلنى أخافه، كان أشبه بعامل بسيط فى عنابر السكة الحديد أو ربما كان محولجيًا فى محطة قلت هذا عزرائيل البروليتاريا اللهم أحينى مسكينًا وأمتنى مسكينًا واحشرنى يوم القيامة فى زمرة المساكين فلأستعد لتحويل الخط.

ولكنه غاب فجأة كما ظهر فجأة قلت: لابد مما ليس منه بد، هل حان الوقت لأكتب ذكرياتى؟ سيعود زائرى يومًا، قد لا يكون بعيدًا، وسيأخذنى معه كنت طول عمرى حييًا، لا أعرف كيف أتحدث عن نفسى، وإذا أردت أن أصف شيئًا حدث لى اعترانى الارتباك واختلطت حكايتى أولها بآخرها ولكن الغريب أنى كتبت، وكتبت قصصًا أيضًا، ربما كان الأمر مختلفًا حين تتقمص شخصًا آخر، أو ربما كنت الآن - بعد أن نيفت على السبعين - قد استعدت شيئًا من براءة طفولتى حين كنت أخترع القصص بلا مبالاة كما حدثنى أهلى، ولكن الكذب الذى يباح للطفل لا يباح للشيخ إذن...؟ فلأرجع إلى المبدأ الذى لقنته للعشرات من تلاميذى: الكتابة مسألة وقاحة. أحد هؤلاء التلاميذ - الجزائرى محمد العبد تاورته - كتبها فى مقدمة رسالة الماجستير كنت أتسلم هؤلاء الطلاب وهم شباب طيبون لا يريدون أكثر من أن يسودوا ثلثمائة صفحة ليحصلوا على شهادة تؤهلهم للوقوف على منصة فى حجرة من حجرات جامعة من الجامعات وبعد ذلك سيؤلفون الكتب ويحصلون على الشهرة والمال، فلا أتركهم إلا وقد أصبحت الكتابة بالنسبة إليهم عملاً يائسًا أشبه بالانتحار ماذا أقول لهم إلا أن الكتابة مسألة وقاحة؟ لكنى لم أكن أتوقع أن يرويها عنى أحدهم فى مقدمة رسالته ولم لا؟ أنا منذ أكثر

من أربعين سنة أرتكب هذا الفعل الوقح، وطالما عالجت حيائى وخوفى بالجسارة التى يمكن أن تكلفنى حياتى لا أريد الاسترسال فى هذا وأنا أستفتح حكاياتى ولكنى أتذكر كلمة أخرى اتخذتها شعارًا لى حيث بدأت هذه السلسلة من الوقاحات قلت لنفسى: لم يعد من الممكن أن أنتظر، فمهما انتظرت فلن أكون أحسن مما أنا وآه من أنا طالما جريت وراءها لأمسكها، ولكن من الذى أمسك ظله؟ ربما كان من الجنون أنى بدأت هذه اللعبة، وبعد أن بدأتها لم يعد من الممكن أن أتوقف لن نتوقف إلا حين تعلن صفارة الحكم انتهاء المباراة، حين يعود زائرى الفجرى.

بدأت أدرك الآن لماذا توقفت مرات كثير قبل أن أشرع فى كتابة هذه الذكريات ليس من العدل أن أشغل قرائى بهذه اللعبة التى لن يحصلوا منها على غير التعب فأنا أعلم أن الكثيرين منهم سيبدءونها طامعين أن يدركوا منها ما لم أدرك ولن يعرفوا الحقيقة إلا بعد فوات الأوان، ولن يكون فى استطاعتهم شىء إلا أن يعلّموها ـ بدورهم ـ لآخرين ولكننى أقول لنفسى: أليست هذه اللعبة أحسن أو أقل ضررًا من ألعاب أخرى كثيرة نمارسها دون أن نسأل أنفسنا عن جدواها؟ ما رأيك ـ مثلاً بعض فى أصحاب الملايين أو البلايين الذين يكونونها ولا يسألون أنفسهم إن كانت فائدتها تساوى بعض ما اقترفوه فى سبيل جمعها؟ ما رأيك فى أمر الجنس أو المخدرات؟ إذن فلنمارس لعبة الجرى وراء ظلالنا ونحن سعداء ومع ذلك فما أكثر ما ننسى ظلنا ونحن نجرى حقيقة أننا لو افتقدناه سوف تنخلع قلوبنا من الرعب، ولكننا ـ فى الغالب ـ نجرى وراء أشياء أخرى نسميها الحياة، وكثيرًا ما نتحدث بشىء من الجرأة عن إنجازاتنا بعضنا أيضًا يروى تجارب الآخرين التى تعجبه وكأنها تجاربه الشخصية وربما كان أصحابها الأصليون أيضًا كذابين وما دام هذا قدرنا وما دمت أستطيع أن أمسك بالقلم لأكشف لك عن أخفى ما يدور فى خاطرى عن الحياة وعن نفسى، فأغلب الظن أنك سوف تتسلى بهذا الكلام، فهو أحسن من أشياء كثيرة يمكن أن تكلفك أكثر وتمتعك أقل يمكنك أيضًا أن تنسى هذا الشعور الذى يراودك أحيانًا على الرغم منك، بأنك لم تفعل ما كنت تحب حقيقة أن تفعله، أو بأنك تفعله بطريقة سخيفة، أو حتى مخجلة،

حين تقرأ عن تجارب أقل إرضاء للنفس فى حياة رجل ينظر إليه بعض الناس من الخارج فيرونه رزينًا محتشمًا ووديعًا مسالمًا وراضيًا عن نفسه وعن دنياه.

وربما كانت فى حياتك أشياء لم تكن من صنعك، ولكنك تتمنى لو أنها كانت غير ما كانت. ربما ولدت غنيًا وأنت تتمنى لو أنك ولدت فقيرًا (هذا يحدث أيضًا، وبكثرة لا يمكن أن نصدقها، ولو أن العكس هو الغالب) وأنت على كل حال ولدت فى الشرق الأوسط، وربما كنت تفضل مكانًا آخر لميلادك، على الأقل لتحصل على جنسيتين بدلاً من جنسية واحدة، وهذا - بالطبع - يعطيك الكثير من حرية الحركة ربما تعلمت فى كلية الآداب وكنت تفضل العلوم، أو الفلسفة فالخيارات حقًا محدودة، ولكنها أيضًا محيرة، بل وأقول لك الحق مؤلمة وقد يكون أسهلها خيار الرفض، مثل بعض أبناء الباشوات الذين عرفناهم، وكانوا يدخلون - بمحض رغبتهم - فى طبقة البروليتاريا. أما الخيارات المؤلمة حقًا فهى الخيارات الصغيرة، ليس أن تتزوج أو لا تتزوج بل أن تأكل من طبيخ زوجتك أو تأكل فى مطعم، أن تجلس ساعة مع القريب الذين زارك على غير انتظار بدون موعد أو تستأذن منه لأنك مرتبط بعمل مهم (هذا كذب طبعا) مثل هذه الأشياء الصغيرة تجعلنا نرثى لحالنا ونقول لأنفسنا إننا لم نولد أحرارًا قط، إننا محكوم علينا بالحياة، قبل أن نكون محكومًا علينا بالموت.

ربما كان حديثى عن حياتى مسليًا لهؤلاء الناس الذين لا يرضون عن حياتهم، وهم كل الناس، وربما وجدوا فى بعض ما لا يرضون عنه موضوعًا للفخر عندما طلب منى «الهلال» أن أكتب فصلاً فى السلسلة التى جعلوا عنوانها «التكوين» قلت عن نفسى إن حياتى لا تختلف عن حياة الملايين من المصريين العاديين، وإنى وقفت مرات كثيرة على حافة العوز أو المرض أو الجنون، لولا أن تداركتنى رحمة الله ولا شك أن القارئ اللبيب قد شعر بنبرة الفخر التى تبطن هذه العبارة المتواضعة فمن أنا حتى أجعل لنفسى هذه الأهمية عند الله؟ من حق كل إنسان أن يعتقد أن الله يخصه بالرعاية، وأنه ليس مجرد هباءة فى هذا الكون العريض، ألم يقل السيد المسيح - عليه السلام - إن الشاة الضالة أهم عنده من القطيع كله؟ يمكنك أن تقول - إذن - إن اعتقاد الفرد منا بعناية لله يتناسب تناسبًا طرديًا مع

كثرة مصائبه لكن الذى يعطى هذه العبارة معنى الفخر السخيف هو علم القارئ المسبق بأنى قد نجوت ـ فعلاً ـ من العوز ومن المرض (عدا بعض الأمراض المتوطنة وعدد من أمراض الشيخوخة) ومن الجنون طبعًا.

ولا أدرى ماذا يمكن أن يظن القارئ بى حين أضيف إلى هذا الفخر الكاذب وإلى الحواف الثلاثة حافة رابعة وهى حافة الجريمة وهى مختلفة عن سابقاتها لأن العوز معروف وكذلك المرض وكذلك الجنون، هذان الأخيران ممكن حقًا أن تتعدد أنواعهما ولكن النتيجة تظل هى هى بدون فارق كبير أما عن الجرائم فلعلك توافقنى على أن ثمة فروقًا كبيرة بين السارق والقاتل والمختلس... إلخ فثمة أنواع من القتل يمكن أن ينظر إليها على أنها جرائم غير مخلة بالشرف، بل يمكن أن ترتبط بالشرف ارتباطًا إيجابيًا لا سلبيًا وشاعر العربية الأعظم يقول:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يُراق على جوانبه الدمُ

وإذا كانت السرقة هى الحصول على مال الغير أو على حق من حقوقه، فكم من السراق يسمى سارقًا بالفعل وكم يُعدون من الوجهاء ذوى المناصب الرفيعة، أو المشروعات الجليلة؟ لا جرم أن كلمات مثل «الشرف» و «الحق» يمكن أن يختلف فى تفسيرها المفسرون، ولكن جريمتى ـ مع الأسف ـ ليس لها إلا صورة واحدة، وتفسير واحد، ولهذا ترانى أهرب من تسميتها، كما أحاول أن أنسى حالة الرعب التى تصيبنى عندما أشعر أنى واقف ـ بالفعل ـ على حافتها، وأرجوك أن تتذكر هذه الحقيقة جيدًا، وهى أنى واقف على الحافة، لم أسقط فى الهاوية بعد، ثم أرجوك أن تسمح لى بعرض هذه الحالة، حالة وقوفى على الحافة، فى صورة مشاهد (وهو ما يحدث لى بالفعل).

وأنا أبدأ بالمشهد الأخير، على طريقة الفلاش باك، وأن أجعلك أنت ممثله الوحيد:

أنت جالس إلى مائدة الإفطار، قد انتهيت من طعامك، وأخذت تشرب شايك أو قهوتك، على مهلك، وأنت تبسط أوراق جريدتك اليومية وتترك عينيك تجريان على العناوين، فيلفت نظرك هذا العنوان:

القبض على شخصية معروفة

متلبساً بجريمة أخلاقية فى وضح النهار

وسأتركك تقرأ، متمهلاً ومتلذذًا، وأقفز إلى المنظر الأصلى الذى جللنى بالعار لا سمح الله:

لم أكن - علم الله - أفكر فى أية جريمة من أى نوع، ناهيك عن الجرائم الأخلاقية التى لا تتفق مع ما هو معروف عنى، كنت أسير فى طريقى فى أمان الله أو لعلى كنت واقفًا فى صف للحصول على تذكرة ما، أو أمام صيدلى حتى يجىء دورى ليعطينى الدواء الذى أطلبه، عندما يحدث هذا الشىء بسرعة البرق: تتسمر عيناى فى نقطة ما، وماهى إلا لحظة حتى تمتد يدى وكأنما تحولت بسحر هذه النقطة إلى شىء لا علاقة له بى، وما هى إلا لحظة أخرى وإذا أنا محاط بجمهور كبير من الناس: كبار وصغار، نساء ورجال، محترمين وغير محترمين كلهم يعلق على فعلتى الفاضحة، وكلهم مصمم على تسليمى للشرطة.

وهناك مناظر كثيرة تالية سأعفيك وأعفى نفسى منها، كلها أشهده فى لمحة وأنا محتفظ بوقارى، غاية ما يمكن من الوقار، وبمجهود إرادى لا يعرفه أحد غيرى، أحول عينى عن هذه النقطة الملعونة أبتعد عن الحافة.

قال لى بدر الديب عندما وصفت له هذه الحالة، وكنت أريد أن أسمع منه كلمة تطمئننى، أن يقول لى - مثلاً - إنها ليست غريبة عليه، ولكنه قال:

أنت مكبوت جداً

وهكذا أصبح لدى ما يمكن أن أفخر به حقًا أصبحت لدى ميزة على أولئك الملايين الذين يقفون مثلى على حافة العوز والمرض والجنون، فهذه حالة يمكن أن يدرسها علماء النفس ويضعوها فى كتبهم أما قارئى الذى ظل طوال هذه السنين يرانى إنسانًا عاقلاً، فسوف يفرح بهذه «النقطة الرابعة»، وسوف يتوقع منى أن أحدثه بأشياء ظريفة، كنت أخفيها عن الناس لأحافظ على احترامى.

***

اكتب أو لا اكتب؟ رنت هذه العبارة فى أذنى، مثيرة تلك العبارة المشهورة التى لا أدرى متى سيكف الكتاب وغير الكتاب عن استعمالها: أكون أو لا أكون كأنما تراكمت على هذه العبارة كل هموم البشر وأنا لا أريد أن ألبس خواطرى هذه أثواب التراجيديا، أنا أريد أن أحادثك ـ صديقى القارئ ـ حديثًا حميمًا، اريد أن أنفض حياتى أمامك، وأنا أول من يعرف أنها حياة تافهة، لعلى أحاول أن أجعل منها شيئًا مهمًا بالكتابة أهذا هو السبب فى السؤال الذى يطل برأسه فى رأسى كلما حاولت أن أمسك بالقلم، لأدخل فى مشروع الكتابة من جديد؟ ولكن هذا السؤال يرن فى أذنى الآن شيئًا مختلفًا.

أنا على شاطئ البحر، بعيدًا عن منزلى، استيقظت متأخرًا عن عادتى، الساعة قرابة السابعة، ولم يكن ينبغى أن أسأل هذا السؤال بعد أن سودت الصفحات السابقة، فقد صححت النية من قبل على أن أبدأ هذا الحديث معك، وكانت المشكلات التى تتراءى لى فقط هى تلك التى تتعلق بالمادة والشكل، كما هى الحال دائمًا مع كل من يكتب إذن لماذا يقوم هذا السؤال أمامى الآن، قويًا ملحًا على غير العادة؟ لقد نمت الليلة البارحة، لا أدرى كيف نمت. فتحت الراديو الصغير على محطة القرآن، حين انتهى القارئ، وبدأ المذيع يتكلم، مددت يدى لأسكته، مخافة أن يضيع الهدوء الذى سرى فى نفسى حين يبدأ التشادق والتعالم على خلق الله هل حلمت؟ من رحمة الله أنى لا أتذكر معظم أحلامى. ولكن الشعور بالقلق الذى استبد بى آخر الليل وجدته راقدًا بجانبى فى الصباح، لم يهدأ ولم ينم زوجة ابنى الأصغر، الشابة اللطيفة العاقلة المهذبة الجميلة، ذات الطفلة التى احتفلنا بعيد ميلادها الأول قبل بضعة أشهر، مريضة منذ أيام، لم تكن تشكو إلا من ألم فى الحلق، ذهبت إلى طبيب فأعطاها دواء، بدلاً من أن يُذهب الألم زاده، وبدأت تشعر بصعوبة فى البلع، وارتفعت حرارتها أخذها زوجها إلى طبيب ثانٍ، إخصائى يحمل الشهادة الكبيرة التى يسمونها الزمالة، فى مستشفى استثمارى كبير، قال لها حين كشف عليها: It is bad luck، هكذا بالإنجليزية، يعنى حظك سيئ، لماذا يا سيدنا؟ عندك التهاب فى غشاء البلعوم، وعليه كمية هائلة من الصديد ـ إذن، فماذا فعل الطبيب السابق؟ ـ لو كان فى

الوقت متسع لأخذنا عينة للتحليل، ولكننا يجب أن نبدأ العلاج فورًا لابد من الراحة التامة، الأفضل أن تقيمى فى المستشفى إلا إذا كان فى استطاعتك أن تلازمى الفراش فى البيت كان هذا ـ بالطبع ـ هو اختيار الزوج واختيارها، فلدينا فى المنزل أكثر من واحد واحدة يحرصون على راحتها، والحقنة اليومية المضاعفة يمكن أن يعطيها إياها ممرض محترف.

أمس كان قد مضى على العلاج المكثف والراحة التامة، حسب أوامر الطبيب، خمسة أيام، والحرارة على حالها، وكلما سألنا البنية الطيبة الصبور كيف تشعرين؟ كيف حالة البلع؟ تطمئنا بقولها: أحسن، ولأنها لم تتعود الكذب تضيف: قليلاً! ولكن موعد الزيارة التالية ـ حسب أوامر الطبيب أيضًا ـ قد حل، فتتعلق آمالنا، نحن ـ الحمقى ـ بما سيقوله جنابه، ولكن السكرتيرة، التى لم تكن تعرف الموعد كما يبدو ـ تقول إن جدول الليلة مزدحم، ولا يمكن أن يراها بحال، وعليها أن تنتظر إلى الغد.

هذا ما علمته حين كلمتهم قبل منتصف الليل فكدت أجن.

أكتب أو لا أكتب؟ هذا ما سألته لنفسى حين استيقظت قرب الساعة السابعة ولكن كيف أطيق الانتظار إن لم أمسك القلم، إن لم أخل إليك قليلاً يا صديقى الوحيد؟ فلابد لى من الانتظار حتى يستيقظ بواب العمارة ويفتح حجرة التليفون، وحتى يستيقظوا هم أيضًا، هناك، كما تعودوا أن يستيقظوا، دون أن أفزعهم بمكالمة فى وقت مبكر؛ لهذا أنا أكتب مع أنى قررت أن أكتب لك لأمتعك أو أشجعك، لا لأثير خواطرك.

يقتلنى عدم المبالاة، يقتلنى أكثر من الجهل ادعاء العلم، يقتلنى أن نربح أو نشتهر على حساب آلام الناس، ويقتلنى أن يخاطر البشر المستريحون بأرواح البشر المتعبين يقتلنى أن نقف عاجزين أمام معاناة أحبائنا، يقتلنى أن نلغى عقولنا القدر القليل الذى أعطاه لنا الخالق من الفهم والذكاء، لأن نصابًا أوهمنا أنه سيتحمل عنا عبء التفكير والتدبير.

ربما كنا خلقنا فى عالم ألف التواكل والكسل ربما كنا نكره المسئولية، ولهذا نظل أطفالاً حتى حين نطيل الشوارب واللحى، ثم حين تبيض منا الشوارب واللحى، ربما كنا نخاف الحقيقة، أكثر من أى شىء، ويصعب علينا أن نفتش عنها بين كومة من الاحتمالات، ولكن ما ذنب أحبائنا؟ إذا كان منظر الكهل المستسلم يبعث فى نفوسنا الغيظ والاشمئزاز، فكيف يمكننا أن ننظر إلى الطفل البرىء؟

لنتركها بين يدى الله أرحم الراحمين، فنحن ما عشنا حتى اليوم إلا بفضل رحمته أسأل نفسى أحيانًا: هل ينجو مرضانا بفضل المضادات الحيوية أو يتعلم أطفالنا؛ لأنهم يجلسون بالفصول أو تدور مصانعنا لأن الناس فى الداخل أو الخارج يطلبون ما تنتجه أو تنبت حقولنا لأننا نعرف طبيعة تربتها أو خواص البذور التى نضعها فيها، وهل تتفاوت أقدار الناس بيننا؛ لأنهم يختلفون فى درجة العلم أو المهارة أو الاجتهاد أم تتفاوت لسر خفى سماه بعضنا «البركة» حتى يخفوا جرائمهم تحت ستار القدرة الإلهية؟ وهل سأل أحدنا نفسه مرة لماذا تظهر القدرة الإلهية فى بلادنا بصورة غير التى تظهر بها عند غيرنا من خلق الله الذين يفكرون ويعملون؟ إذا كان السبب فى هذا هو أنه يحبنا أكثر مما يحبهم فهل يحب أيضًا قذارتنا وفقرنا وجهلنا؟ لعل فينا فضيلة واحدة يحبها الله وهى أننا نتشبث بالحياة ما استطعنا، وهو - سبحانه - مانح الحياة يحب منا أن نتقبل منحتها مهما تكن صورتها، ولكنه منح الحياة أيضًا للسوائم والكلاب والسنانير والوحوش والحشرات فهل يحب منا أيضًا أننا ربطنا أنفسنا بهذه المخلوقات منذ أجدادنا الأولين فعبدنا العجل وابن آوى والسنور والبقرة؟ ولكنى بدأت هذه الصفحات زاعمًا أنى سأحدثك عن قصة حياتى، فهل أريد أن أبدأها من بداية الحياة على هذه الأرض؟ أخشى أن زائر الفجر لا يمكن أن يبعدنى عن مشكلات الحاضر ولا أن ينعم على بهذه المتعة التى يخص بها الشيوخ، متعة الرجوع القهقرى إلى حياة الطفولة، حيث يبدو كل شىء زاهيًا ناضرًا كخضرة البرسيم فى ندى الفجر، ويبدو الطفل نفسه كائنًا غير عادى بجميع المقاييس: ذكاء وصحة وجمالاً أتراه - زائر الفجر - يسخر منى أم يشفق على حين يرانى مندفعًا نحو المستقبل، حاملاً على كتفى أثقال الماضى، والمستقبل باب مقفل، بيده وحده مفتاحه، فيعجب لى

كيف لا ألقى عن كاهلى هذه الأحمال وأجلس هادئًا أتسلى بتقليب محتوياتها قبل أن يأخذنى من يدى ليعبر بى ذلك الباب؟

عندما أذهب إلى التاريخ القديم جدًا تضيع حياتى كحبة رمل فى هذه الصحراء، وتصبح الصحراء نفسها هى شغلى وربما كان تفكير الإنسان فى نفسه كحبة رمل أقل يأسًا ممن تفكيره فى نفسه كمجموعة جينات لم تكن له حيلة فى تكوينها فى البداية كما فى النهاية راحة فقدان الذات، أما قصة الجينات فهى قصة الجرى وراء الظلال، قصة بناء البيت وهدم النفس، قصة السفر إلى نقطة الابتداء، قصة الشرب من نهر النسيان.

وقبل أن أنتقل إلى العاصمة الكبيرة قضيت طفولتى وصباى بين قرية ولدت فيها، ومركز استوطنه أبى، وعاصمة الإقليم التى قصدناها لأتم فيها دراستى الثانوية كفر سنوان - أشمون - شبين الكوم أسماء ثلاثة لم أفكر قط أن أبحث عن تاريخها مع أن أشمون كان - فيما وقع بين يدى من قراءات بعد ذلك - اسم إله أو تحريفًا لاسم إله من آلهة مصر القديمة، وكنت أعرف حجرًا عليه خطوط هيروغليفية، جعله الناس عند حنفية مصلى: يقرفصون عليه حين يتوضئون ولكن الشىء الذى أدهشنى دائمًا هو أن أى مكان سكنته فى هذه البلاد الثلاثة - أى الحيز الصغير الذى تشغله حارة أو مجموعة من البيوت - كان أشبه بعالم صغير يعج بالأطماع والشهوات والعداوات والفضائح، وكل ما يمكن أن يحتوى عليه العالم الكبير من خير قليل وشر كثير وخلال ذلك كنت أتعرف شيئًا فشيئًا إلى أقاربى الأقربين وبعض الأبعدين، وأتعلم كيف أنتمى أو لا أنتمى إليهم.

هل استوقفك هذه العبارة: لا أنتمى؟ لا أظنك تدهش لذلك أرجو أيضًا ألا تتصور أنى أتكلم عن الأقارب الأبعدين، الحقيقة أنى أتكلم عن الأم والأب بالذات ولا يمكننى الآن أن أحدد فى أى سنة من عمرى أخذت أفكر أنى ابن ناس آخرين ولعلى حاولت أيضًا أن أتصور شيئًا عن أهلى «الحقيقيين» هل هذه فكرة شاذة؟ لا أظن ولكننى تعودت أن أخلو إلى نفسى فى سن مبكرة جدًا، وكنت أستأنف التفكير كل مرة فى أمور تبدو لى محيرة بقدر ما هى حقيقة هذا هو كل الفرق بينى وبينك، إن كان ثمة فرق ما: فلا تقل لى، من فضلك، كما قال لى بدر الديب:

«أنت مكبوت جدًا» أو شيئًا من هذا القبيل لقد قرأت - فيما بعد ذلك - الكم الهائل من الأساطير التى تجعل الأبطال أبناء غير شرعيين لآلهة يلذ لهم أن يعاشروا نساء البشر، متخفين - أحيانًا - فى صورة الزوج المسافر، ويقال أيضًا إن الإسكندر الأكبر كان يتصور أنه جاء إلى الدنيا بهذه الطريقة، مفضلاً أن تكون أمه قد زنت مع إله على أن يكون ابنًا شرعيًا لملك عادى مثل فيليب وعندما قال له كهنة سيوة إنه ابن الإله أمون، شعر أنهم يقولون له الحقيقة التى ظل يبحث عنها منذ وعى أنا لست مثل الإسكندر الأكبر فى أى شىء، ولا أبى كان ملكًا مثل فيليب، ولكن الأساطير هذه ليست إلا أفكار ناس عاديين، صوروها قصصًا وجسموها فى أبطال أو آلهة، وسيظهر عندنا بطل اسمه عنترة، وسيجهد نفسه لإثبات أنه ابن شداد العظيم، وأن أمه زبيبة لم تأت به من الهواء، ثم سيأتى كاتب روائى قصاص اسمه موبسان يكتب رواية اسمها «بيير وجان»، حيث يتعذب بيير الذى ولدته أمه لصاحب حانوت عادى، ويغفر جان خطيئة أمه التى حملت به سفاحًا من أب نابه، لم يبخل عليه بميراث عظيم وسيكتب مؤرخو موبسان أنه كان وثيق الصلة فى صباه بالروائى الكبير فلوبير، الذى كان صديقًا لأمه، ويلمحون إلى أن أباه الحقيقى ربما كان فلوبير.

سأحدثك فيما بعد عن أمى وأبى، الذى أحمل الكثير من ملامحه، حتى أن من رآنى وإخوتى غير الأشقاء لم يتردد فى الحكم بأننا من صلب رجل واحد أنا لم أظن بك السوء قط يا أمى، ولكننى أظن أن هذه الفكرة كانت هى الفرض الوحيد المعقول والمقبول الذى وضعته لتفسير وجودى فى هذه الدنيا، وكانت تتفق - فى جوهرها - مع ما أكده لى بعض أطفال أسرتنا الذين يكبروننى قليلاً من أنكم وجدتمونى على عتبة الجامع ولعلك توافقيننى على أن الفرض الذى وضعته أنا كان أفضل بكثير من تلك الحقيقة التى صعقنى بها أحد الأطفال حين سألنى مرة: هل تعرف من أين جئنا؟ وعندما عجزت عن الجواب همس فى أذنى باسم المصدر ولم أصدق بالطبع وبدأت أسأل الأطفال الآخرين، الذين فكرت أنهم أكثر علمًا وقد عشت وقتًا عصيبًا حين وجدت إجماعًا، أو شبه إجماع على هذه الحقيقة.

أشد ما يحيرنى حين أكتب عن طفولتى الأولى محاولة تحديد الزمن هناك أشياء غائمة ولكنها مهمة، ومنها هذا التساؤل عن «المصدر» متى شغلتنى هذه الفكرة، ومتى انقطعت؟ إن الربط بسنوات الدراسة يمكن أن يساعد على تحديد معالم الزمن فى فترة تالية، ولكن أهلى دفعوا بى إلى المدرسة فى وقت مبكر جدًا، كنت فى الرابعة ودفعت إلى الكتاب أيامًا، ووجدتنى أجلس على حصير فى حجرة معتمة، ورأيت أطفالاً يمدون على «الفلقة» ولا أحسب أن الكثيرين من أبناء هذا العصر رأوا الفلقة أو سمعوا عنها الفلقة أداة تعذيب كانت تستخدم فى الكتاتيب والمدارس، وهى عبارة عن عصا طويلة غليظة فى وسطها حبل مثبت من طرفيه، أشبه بالخية يطرح الطفل على ظهره وتوضع قدماه فى هذه الخية وتلف العصا عدة مرات لتثبيت القدمين فى الحبل، ثم يبدأ الضرب على القدمين بالخيزرانة فترة تقصر أو تطول، حسب حجم الجريمة كانت المدرسة الابتدائية التى يعلم فيها أبى شيئًا كبيرًا، لا يدخل التلميذ السنة الأولى إلا بعد امتحان فى الإملاء والحساب، فلابد أن يسبقها إعداد يقوم به الكتّاب أو مدرسة تحضيرية، وقد أدخلت واحدة من هذه المدارس، وهنا وجدت التلاميذ يجلسون على «تخت» فى حجرة أكثر ضوءًا، ولكن المدرسة وكل ما يجرى فيها، يظل شيئًا هامشيًا بالقياس إلى أحاديث أمى مع صديقاتها، أو كلامها مع أبى وكانت لها صديقة أثيرة لديها، أشبه بأخت، لم تنقطع الصلة بينهما منذ وعيت إلى أن شاختا، وكان يجمع بينهما أنهما «غريبتان» فى هذه البلدة، وأن زوج الصديقة كان من كفر شنوان مثل أبى، وإن لم تكن بينهما علاقة قوية، فقد كان أبى أزهريًا يعلم العربية والدين فى المدرسة الابتدائية، وكان الآخر كاتب الصحة، وكنت أسمع أبى يقول أحيانًا عن هذا «الأفندى» إنه يشرب الخمر، ويعلل بهذا حمرة وجهه أما زوجته ـ صديقة أمى ـ فكانت من شبين الكوم، ولعلها كانت تمثل جانبًا من طموح أمى إلى حياة المدينة، وصديقة أمى هذه ـ خالتى أم محمود ـ هى التى أقنعت أمى بنقلى من الكتاب إلى المدرسة التحضيرية حيث يتعلم أولادها.

ستشغل المدرسة الابتدائية الجزء الأكبر من وقتى واهتمامى خصوصًا بعد أن أتجاوز السنة الأولى، أما قبل ذلك فأنا أتعلم من اللعب مع الأطفال ومما ألتقطه من كلام الكبار سيفتح لى البحث عن «مصدرى» باب الجنس، وسأتعلم أيضًا أن

الأطفال مثلى يجب ألا يحتكوا بالغلمان الأكبر سنًا، فهؤلاء بأصواتهم المتسلخة أو التى بدأت تكتسب خشونة أصوات الرجال، يجب الحذر منهم، وأحسبنى كنت أكره بالغريزة أن يقرب أحد يده من جسمى، أو أن يقبلنى أحد سوى جدى لأمى الذى سأحدثك عنه فيما بعد، وكانت شفتاه طريتين، وكنت أحس بأثرهما شيئًا يشبه النداوة على خدى، فألتفت لأمسحه بشدة.

ربما كان «الكبت» الذى شخصه بدر راجعًا إلى هذه المرحلة من طفولتى، ولكنى لا أستطيع أن أتذكر قبلة واحدة من أمى أو أبى لابد أنهما كفا عن تقبيلى فى وقت مبكر جدًا لم يكن إظهار العواطف فى أسرتنا شيئًا عاديًا، بل كان إظهار الشدة التى تقترب من القسوة أحيانًا، معدودًا من حسن التربية ولابد أن أمى كانت إنسانة معقدة جدًا، فقد تزوجها أبى وهو يناهز الأربعين، وهى بنت ستة عشر، وكانت لها ضرة تكبرها كثيرًا، وبقيت أمى ثلاث سنوات لا تحمل، فتفاءلت ضرتها بقرب رحيلها، وكانت تأمر بناتها أن يغنين: «يا عروسة سلم اللى جابك، شهرين ثلاثة وترجعى لأصحابك» هكذا روت لى أمى بعد أن كبرت وأصبحت تجتر بعض ذكرياتها القديمة وأنا أسمع.. وقد حملت أمى مرة ومرة ومرة ومرة، ولكن ثلاث من أطفالها ـ ذكرين وبنتًا حفظت أسماءهم لكثرة ترديدها: فهمى وأحمد وانشراح ـ ماتوا قبل أن يجاوزوا الثانية من العمر، أما الرابع ـ عبدالفتاح ـ فقد عاش حتى بلغ الخامسة، ثم لحق بإخوته، وجئت أنا بعده، فصممت أمى على أن تسمينى عبدالفتاح، عساها تبرد نارها على عبدالفتاح الأول، ولكنها خافت أن يعاقبها الله على عنادها فسمتنى هذا الاسم المزدوج «عبدالفتاح شكرى» وكانت لا تنادينى إلا بالاسم الثانى.

أعتقد أن الدافع الأقوى فى سلوك هذه السيدة كان العناد والسيطرة، وأنها ـ ولعلها لم تكن الوحيدة فى هذا بين بنات جنسها، وخصوصًا فى ذلك الزمن ـ لم تعرف تلك العاطفة الرقيقة التى نسميها «الحب» ولا تحتاج المرأة أن تحب لكى تتصرف بوحى من غريزة الأمومة، أو لكى تمارس الخضوع لبعلها ولا شك أن ظروف حياتها ـ وقد ذكرت بعضها ـ كان لها بعض الأثر فى ذلك، ولكننى أتساءل حين أفكر عن مكان «الحب» فى ثقافتنا: ألم يكن الانتقال فجائيًا من الحب

العذرى إلى الحب الصوفى، وكلاهما عاش على هامش المجتمع؟ لقد كان عامة العرب يصفون بنى عذرة بأنهم ضعاف القلوب، وكان أهل التصوف يخلقون الحب من داخلهم، وبين هاتين الفئتين الشاذتين تسعى الكثرة الغالبة إلى متعة الجنس فى صراحة لا تخفف منها تلك الكلة المبهمة: كلمة الحب كتابنا يزعمون أن «طوق الحمامة» كتاب عن الحب، ولكن ابن حزم نفسه صرح من العنوان بأنه «فى الألفة والآلاف».

هل من باحث يكتب يومًا تاريخ الحب عند العرب، أو - إن شئت - عند المصريين؟ أرجو أن يسمح لى الآن بملاحظة عابرة الحب كما أراه الآن، «ثقافة» خاصة هو - كما يقول نين عن الأدب - نتاج العنصر والبيئة والعصر، والذى فى داخلنا مما نزعم أحيانًا أنه حب، هو شىء غير مثقف، خليط من انفعالات كثير منها زائف أو مصطنع.

عندما بحثت فى أدبنا الحديث لم أجد عاطفة الحب، ولكنى وجدت شيئًا سميته «حب الحب» وعنيت به محاولتنا أن نوجد فى ثقافتنا شيئًا يمكن أن يسمى «الحب» أما الآن وأنا أسترجع تفاصيل حياتى فلست بقادر على الزعم بأنى نجحت فى أن أكون هذه الثقافة فى داخلى. ولكن تلوح لى بين ركام الماضى البعيد قطعة صغيرة تلمع كالجنيه الذهب، إن لم تكن هى الحب، فما عرفت الحب فى حياتى قط، كم كانت سنى وقتها؟ عندما قارنت الحوادث والأمكنة استطعت أن أستنتج - لا تضحك - أنى كنت بين السادسة والسابعة وأصابنى سهم الحب - كما يصيب الكبار - على حين غفلة كنت ألعب مع صبية من أترابى، ونادانا أهل الدار لنعاون فى نقل أشياء من الطابق الأسفل إلى الطابق الأعلى كانت هى - تلك التى رمتنى بسهمها - واقفة على بسطة الطابق الأعلى تتلقى منا ما نحمله لتضعه فى مكانه الجديد كان وجهها بدريًا، وشعرها أسود حالكًا، مفروقًا على الجانبين، لا يكاد يتجاوز شحمتى أذنيها - هكذا أتمثلها إلى اليوم - زهرة لم تكد تتفتح عن أنوثتها مضيت أعمل فى حماسة، صاعدًا هابطًا، وأنا الاحظ نظرتها الحانية المشفقة، وكأنها تريد أن تقول لى: على مهلك - أو لعلها قالتها فعلاً عندما انتهينا أمرتنى أن أستريح، فجلست على درجة من السلم، وغابت قليلاً فى الداخل ثم

أحضرت قطعة حلوى، وكنا نعرف من الحلوى نوعين: الكرملة وهى صلبة نطحنها بأسناننا وأخرى طرية نسميها الفنضام أو «عفش الجناين»، هذه هى التى وضعتها فى فمى فتركتها تذوب ببطء، ونفسى تحدثنى أنى لن أذوق مثل حلاوتها أبدًا.

هذه قصة حبى من أولها إلى آخرها، ولكننى سأضيف إليها على عادة الروائيين فى القرنين الماضيين، «خاتمة» تلخص ما جرى لأبطال القصة بعد أن فرقت بينهم عوادى الزمن.

لقد تزوجت حبيبتى بعد سنوات قلائل ولا داعى لتضخيم الأمور، فإنى لم أرها قط بعد تلك المرة وأظنها انتقلت مع أسرتها بعد ذلك بقليل، ولم تلبث أن حجبت حتى جاءها العريس المناسب، أو الذى رآه أهلها مناسبًا، وأنا بعد فى طور المراهقة، وعواصفها الخماسينية الصفراء تحجب صفاء الذكريات ثم تمضى سنوات أخر، وإذا أنا شاب حديث العهد بالوظيفة، وإذا أنا أسكن معها فى شارع واحد فى المدينة التى انتقلت إليها مع زوجها، وإذا أنا أزور بيتها بدعوة من زوجها، ألسنا بلديات، وهو أخبر منى بأحوال تلك المدينة؟ وهى ـ كعادتها ـ محجوبة، لم تقابلنى مرة واحدة ثم تمضى سنوات أخرى وإذا أمى تخبرنى أنهما كانتا تتزاوران، وأن «حبيبتى» ـ وهل كان أحد يعرف أنها حبيبتى؟ ـ كانت شديدة الشقاء مع ذلك الزوج الذى كان يكبرها كثيرًا، وينفس عن غيرته وقبحه ووضاعته بسوء معاملتها ولكنى لم أرها قط فى واحدة من تلك الزيارات، فإنها لم تكن تأتى إلا وأنا غائب فى عملى.

ولكن حدثًا وقع فى المدرسة ذلك الوقت ـ أى حين كنت فى السابعة أو الثامنة ـ وكان له من قبح الأثر فى نفسى بقدر حلاوة قطعة «الفنضام» التى كوفئت بها على إخلاصى.

كنت فى السنة الثانية أو الثالثة، أستنتج ذلك لأن أبطال القصة لم يكونوا فى فصلنا، فكل سنة دراسية فصل واحد، ولكن كان فى فصلنا ذلك الصبى اليونانى الذى كان أبوه يملك خمارة ومعمل كازوزة فى بحرى البلد، وقد دعانا مرة للفرجة،

ولا أذكر شيئًا عن جانب الخمارة إلا أننا ربما نكون قد عبرناه وهو خال فى ذلك الوقت من الصبح، ولكنا وقفنا مذهولين أمام شىء يشبه برميلاً كبيرًا من الفخار يعلو ويهبط بمكنة خاصة، ورحب بنا أبو الصبى وحيانا بزجاجة كازوزة لكل منا كان الصبى فاره الجسم أكثر من أى واحد فينا أما أبطال القصة الآخرون - وأحسبهم كانوا أربعة - فجميعهم كانوا من تلاميذ السنة الرابعة، لا نرى وجوههم إلا فى فناء المدرسة ساعة الفسحة، لأنهم كانوا - على ما يظهر - من أبناء القرى المجاورة، الذين أتموا سنوات المدرسة الأولية وحولهم أباؤهم إلى مدرستنا طمعًا فى أن يصبحوا أفندية متميزين على زملائهم الذين يتمون تعليمهم - المتفوقون منهم - فى مدرسة المعلمين الأولية كانوا - إذن - فتيانًا شدادًا، نتحاشى الاقتراب منهم، ولكنهم ضبطوا - ربما فى مخزن أو ركن مهجور من حوش المدرسة - يرتكبون الفاحشة مع ذلك الصبى اليونانى وسرى فى المدرسة كلها خبر خطير مؤداه: أننا سنشهد، قبل فسحة الظهر - إذ كنا نذهب إلى بيوتنا لتناول الغداء فلم فلم يكن فى المدرسة مطعم - عقابًا علنيًا على تلك الجريمة البشعة ومدت الفلقة وضرب كل واحد من الفرسان الأربعة ضربًا مبرحًا حتى إذا انتهى دوره انصرف ممسكًا حذاءه بيده وهو لا يكاد يقدر على المشى أما الصبى الفريسة فقد اكتفى بضربه بضع خيزرانات على كفيه، ومازلت أذكره وهو ينفخ من الألم ويضع يديه تحت إبطه ويحكمها وكأنه ولد مزودًا بتلك الغريزة مثل الغريزة الأخرى.

لم تكن الحياة بالنسبة إلىَّ مسألة سهلة قط والناس يتذكرون أيام طفولتهم غالبًا بشىء من الحنين، وربما تخيلوها فردوسًا مفقودًا وأظن السبب فى هذا هو أنهم ينظرون إلى الأطفال من زاوية الشخص الكبير، فيرون لعبهم ومرحهم وضحكهم، ولا أدرى لماذا لا ينظرون إلى ألمهم وبكائهم حين يمرضون أو حين يحرمون من شىء يحبونه وهم - الكبار - يضخمون دورهم فى توفير الغذاء والكساء وسائر متطلبات الحياة لأطفالهم، ويظنون أن الأطفال لكونهم غير مكلفين بشىء من ذلك يعيشون فى سعادة لا يكدرها شىء يؤسفنى أن أقول إن للطفولة متاعبها التى ينساها معظم الأطفال حين يكبرون.

أنا لا أكتب كتابًا فى «سيكلوجية النمو» والمراحل الصعبة التى يجب أن يجتازها الطفل قبل أن يصل إلى سن المدرسة وأحسب أن تلك الكتب - وهى أيضًا مكتوبة من زاوية الكبار - لا تكسب قراءها معرفة حميمة بما يعانيه الطفل كذلك لا أريد أن أنساق مع شاعر مثل ابن الرومى الذى يقول: «لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد»، فهذا خيال محض، لأن أحدًا لم يدخل فى نفس الطفل حين يولد، ولكنى أتذكر كلمة - كثيرًا ما رددتها أمى - ولم تكن تسمع بابن الرومى ولا تعرف أن هناك شيئًا اسمه علم النفس - كانت أمى تقول: «أول حسرة تنزل فى نفس الطفل حين فطامه» أما أنا فهمها حاولت الغوص فى ذاكرتى فلن أتذكر هذه الحسرة، التى نسيتها - كما نسيتها أنت أيها القارئ - بكل تسامح، بل إننى لا أستطيع أن أتذكر متى بدأت أعرف الحروف، أو كيف كنت

أعد على أصابعى، فقد أدخلونى المدرسة وأنا ابن أربع سنين كما أخبرتك كذلك لم أتعرض لشىء من المتاعب التى يعانى منها الطفل الأول أو الطفل الثانى، فأنا لم أكن طفلاً أولاً ولا ثانيًا لم يكن قبلى إلا أولئك الإخوة الثلاثة الذين أخلوا لى السبيل بنبل وكرامة، وإن كنت قد شاركت أمى فى الأسف على فقدهم، حين بدأت تحدثنى عنهم ولا أذكر أن أحدًا ولد بعدى إلا بنتًا سميناها «صفية» ولم تعش أكثر من بضعة أشهر، ثم جاء بعدها بنتان وعاشتا، ولكن كبراهما كانت تصغرنى بست سنين، ولم تكن تمثل أى منافسة لى.

كنت ـ إذن ـ طفلاً بدون مشكلات، إذا اعتبرنا ما تقوله كتب علم النفس، وخصوصًا لأنى لم أكن طفلاً «وحيدًا» بالمعنى الذى تعرفه الأسرة الحديثة فقد كنت كثير اللعب مع الأطفال الذين من سنى، ولابد أن أحدثك عن بعض هذه الألعاب، حتى تعرف أن الأطفال لا يتمتعون بالطيبة أو السذاجة التى تتخيلها فيهم لا شك أنى تمتعت بكل ما كنت محتاجًا إليه من محبة الأب والأم قبل أن تحدث بينى وبينهما تلك القطيعة التى وصفتها لك، والتى جعلتنى أهتم بأمور الجنس من وقتها حتى اليوم وستعرف كلما مضينا فى حكايتنا أن هذا الاهتمام بدأ بداية نظرية واستمر كذلك إلى حد كبير، وأن ابتداءه بالتساؤل عن أصل وجودى جعله يبدو لى مقرفًا وما زلت أذكر أنى حين تقدمت فى أبحاثى النظرية بعض الشىء قامت أمامى مشكلة: حين أكبر ـ كما تتمنى أمى على الأقل ـ سيكون من الطبيعى أن أتزوج، فكل الكبار يتزوجون، وإذن ماذا أعمل مع زوجتى؟ قررت وأنا مستلق على سريرى أنظر إلى السقف، أن يكون زواجى طاهرًا، وهكذا أمكن أن أجرب الحب العذرى ولو لحظة عابرة (ولعلك لم تنس قطعة الفنضام) ويؤسفنى أن أقول إنى لم أجربه قط بعد ذلك، ويبدو أنى ترفعت ترفعًا تامًا عن الاشتراك فى تلك اللعبة السخيفة، لعبة العريس والعروسة، ربما لأنى كنت أعرف فى وقت مبكر أكثر مما ينبغى ما يحدث فعلاً بين العريس والعروسة، ولم أعرفه فقط، بل حكمت عليه أيضًا بأنه شىء منحط.

ما هذا السخف؟ لماذا أحدثك بهذا الأشياء التافهة عن طفولتى؟ هل أشبهك أو لا أشبهك؟ لعل هذا هو ما يشغلنى الآن؟ لعله لم يعد من المناسب أن أسأل،

وقد سرت معى هذا الشوط، هل أكتب أو لا أكتب؟ ولكنى أتساءل، وأحسبك أيضًا تسأل: لماذا أكتب، أعنى: لماذا أكتب سيرة حياتى بالذات، وما سر هذا الإلحاح على طفولتى الباكرة؟ أهذا كله لأن بدر الديب قال لى يومًا إننى مكبوت جدًا؟ لا أظن فكونى طفلاً وحيدًا قد جعلنى أدمن الوحدة، وفى الوحدة لا يمكنك أن تصنع شيئًا سوى التفكير، حتى وأنت لا تملك لهذا التفكير سوى عقل طفل، وأنت غالبًا تفكر فى شأن من شئونك، أو ما يبدو لك أنه أهم هذه الشئون فى وقت معين ستنمو معى هذه العادة، وسأجد نفسى، فى كثير من الأوقات، أضع مشكلة حياتى كلها أمامى وقد قلت لك إن الحياة لم تبد لى قط مسألة سهلة وأقول لك الآن: إنها لم تبد لى صعبة كما تبدو لى الآن وإذا كان معظم الناس يسيئون فهم الطفولة، فإنهم لا يعرفون مطلقًا عواصف الشيخوخة هأنذا أجد نفسى فى أحرج لحظة فى حياتى أن يأتى عزرائيل فى شكل بروليتارى أو فى زى متردوتيل خمس نجوم أمر لم يعد يعنينى الذى يعنينى هو أن أقف مرة أخرى. ولتكن أخيرة - لأراجع كتاب حياتى من أوله، وحياتى لم تكن قط منقطعة عن حياة من حولى، وإذا كانت مختلفة من بعض الوجوه، فهى على كل حال حياة واحد منهم والعواصف التى تحيط بى الآن لم تكن من صنعى أنا وحدى، لا قديمًا ولا حديثًا، ألم أكن معكم طول الوقت؟ أنا أكتب إذن لأنى أريد أن تكونوا معى، فالعواصف تحيط بنا جميعًا شيبًا وشبابًا، أطفالاً وكهولاً، ولا بد لنا أن نراجع كتابنا من أوله لا بد لنا من أن نفكر والمشكلة مع من يفكرون بهذه الطريقة - أى يفكرون فى كل شىء دفعة واحدة، ومن أوله إلى آخره - هى أنهم - دائمًا - يبدءون من جديد هناك - دائمًا - أشياء جديدة، تجعلنا نعيد النظر فى حساباتنا القديمة من المؤكد مثلاً أنى لو شرعت فى هذا العمل قبل عشر سنين أو عشرين سنة لكتبت أشياء مختلفة لعلى لم أكن لأعطى الجنس كل هذا الاهتمام، أو لأكتب عنه بهذه الطريقة فالجنس الآن يطفو على السطح فى كل مجال كلمة Sexy (جنسى) أصبحت تعنى الآن: ظريف، جميل، مشوق.. هكذا أجاب طفل عندما سألته المذيعة البريطانية عن معنى الكلمة، فهل أطمع - مثلاً - أن يقال عن كتابى هذا إنه Sexy؟ الجنسية المثلية أصبحت معيارًا من معايير الحرية والديمقراطية، إن لم تكن أهم هذه

المعايير البرنامج العالمى للإذاعة البريطانية نظم استطلاعًا عن موقف الجنسية المثلية (التى نسميها نحن ـ المتأخرين ـ الشذوذ الجنسى) حول العالم، وسمعت مأبونًا من الهند يفاخر بانتسابه إلى هذه الطائفة، ويسخر من مواطنيه المتخلفين؛ لأنهم يمكن أن يتسامحوا مع «الإيجابى» ـ أو حتى يحترموه ـ ولكنهم يحتقرون السلبى الشواذ أصبحوا قوة ضغط فى العالم المتقدم وراء مئات الملايين أو ألوفها ـ من الجنيهات والدولارات والفرنكات التى تتفق من أجل اختراع دواء لعلاج الإيدز ـ وليس من أجل مكافحة الأمراض المتوطنة، وعندما أرسل كاسترو إلى الولايات المتحدة بين المعارضين طالبى اللجوء السياسى أكثر من مائة من هؤلاء المأبونين مرضى الإيدز ضمن لهم إخوانهم فى دولة الرفاهية العظمى استقبالاً كريمًا وعلاجًا باهظ التكاليف على نفقة الدولة وعندما عقد المسلمون فى بريطانيا مؤتمرًا للمطالبة بحقوقهم السياسية كانت الفئة الوحيدة التى نجحت فى تنظيم مظاهرة مضادة على أبواب المؤتمر هى هذه الفئة من الشواذ وعندما جرؤت عالمة فى الاجتماع على أن تقول فى إحدى ندوات تلك الإذاعة العالمية إن أغلب حالات الشذوذ قد لا تكون راجعة إلى اختلافات طبيعية، بل إلى مؤثرات اجتماعية، حوصر هذا الرأى فلم يسمع بعد ذلك، وعندما أعلن ضابط شرطة أن مرض الإيدز هو عقاب إلهى عادل لأولئك الشواذ، قامت القيامة هناك، حتى فصل الرجل من وظيفته.

أظن أنى لم أكن لأقص عليك حكاية الغلام اليونانى وعشاقه الأربعة لولا أنى سمعت وقرأت عن هذه الحوادث التى تجرى فى عالمنا ومع ذلك فأنا أروى ذكريات وأتحدث عن وقائع، ولا أكتب بحثًا فى الشذوذ الجنسى (هل يجب أن أعتذر عن هذه التسمية القاسية؟) أو عن أطوار الغريزة الجنسية، كما أنى لا أؤلف كتابًا فى سيكلوجية النمو.

إذا كان استرجاع الماضى وسيلة ـ بل إجراء ضروريًا ـ للتفكير فى الحاضر، فحسبى أن أغريك بهذا التفكير، تاركًا لك الحكم والاختيار.

ومع ذلك فلا يمكننى الزعم بأن «العصر» هو الذى فرض على أن أعطى الجنس هذا القدر من الاهتمام، حتى وأنا أتحدث عن ذكريات الطفولة، قبل أن أدخل فى جحيم المراهقة، بل يجب أن نشكر «العصر» لأنه منحنا هذه الحرية للحديث عن شىء مهم جدًا فى حياتنا، ولعله أول ما نبدأ فى ملاحظته عندما تتكون لدينا بذرة الوعى بذاتنا لقد كانت معرفتى الفاجعة بطريقة قدومى إلى هذا العالم فاتحة لبحث عنيد فى ظلمات هذا الموضوع، ولا وسيلة لى فى هذا البحث ولا معين إلا ما ألتقطه من كلام الكبار فيما بينهم ولو أمكنك أن تعود طفلاً - صديقى القارئ - لدهشت لمبلغ غباء الكبار حين يتصورون أننا - نحن الأطفال - لا نفهم الكثير مما يقولون لقد قال تشوسكى - كما قال كثيرون قبله من علماء اللغة - إن الطفل فى تعلمه التلقائى للغة - أى فى السنوات الثلاث الأولى من عمره تقريبًا - يقوم بعمليات عقلية كثيرة بالغة المهارة والتعقيد والإحكام دعنى أضيف ثلاث سنوات أخرى - أو أربعًا على الأكثر - لأقول إن الطفل حين يبلغ السابعة يكون قد كون فكرة كاملة عن نفسه وعن العالم، فكرة لا تنقصها - كيما يقوم بدوره المقسوم له فى باقى عمره - إلا بعض التفاصيل العملية، التى لا يحصلها - مع الأسف الشديد - إلا بفقدان الكثير من المدركات الثمينة التى حصلها بمفرده.

ولا يمكننى الزعم - أيضًا - بأنى حين أحدثك عن خبراتى الدينية فى تلك السنوات المبكرة من حياتى لا أكون إلا مسايرًا لموجة التدين التى تغمر العالم كله - لا عالمنا الإسلامى فحسب - فى هذه الأيام وسترى أنى ألتزم فى هذا الموضوع - مثل سابقه - الأمانة فى سرد الوقائع والصدق فى تسجيل آثارها فى نفسى وسأنطلق من مسلمة وهى أن الزمن حكم على القيمة فإذا كنا لا نعتد فى تاريخ البشرية إلا بما نرى آثاره ماثلة أمامنا إلى اليوم فما أجدرنا أن نطبق هذه القاعدة نفسها على ذكرياتنا الشخصية فما بقى منها محفورًا فى ذاكرتنا هو أقواها تأثيرًا فى حاضرنا ولا شك أنى - كغيرى من الأطفال - خوفت كثيرًا بأنى سأذهب إلى النار إذا فعلت كذا أو كذا ولعل هذا التخويف كان له بعض الأثر فى سلوكى، ولكنى لا أذكره، وإنما أذكر أشياء أخرى هى التى تسمح لى بأن أتحدث

عن «خبراتى الدينية» فى وقت لم يعد فى استطاعتى أن أتذكره، ولعله يسبق دخولى المدرسة.

كنت أنام عادة بجانب أبى وكثيرًا ما كنت أنتبه قرب الصبح على صوته يرتل القرآن بنغم أطرب له، وإن لم أفهم شيئًا مما يقول وكان أحيانًا يقص علىَّ بعض القصص، ولكنى لا أذكر سوى قصة الإسراء والمعراج، وكيف كان النبى يذهب ويجىء بين ربه وموسى حتى نقص الصلوات المفروضة علينا من خمسين إلى خمس فقط ولابد أن هذه القصة كان لها تأثير شديد فى نفسى، ويخيل إلىَّ أن السؤال الذى ظل يزعجنى هو: هل كنا نستحق من النبى كل هذا التعب؟ ولعلى سألت نفسى أيضًا: ألم يكن الله يعرف ضعفنا وهو الذى خلقنا؟ ولكن المؤكد أننى، عندما أصبح أبى يأمرنى بالصلاة، وجدت أن الصلوات الخمس هى - حقًا - حمل ثقيل وقد ظلت أمى تذكرنى بأنى كنت أقول: هذه الصلاة لا تنتهى أبدًا فقد كنت أقارنها بالصوم الذى له شهر واحد، وكنت أتعجل اليوم الذى يسمحون لى فيه بأن أصوم مثلهم، ولو بعض الأيام فقط ولابد أنى قد قيل لى أيضًا شىء عن معنى الصوم استطعت أن أفهمه، ولكن الركوع والسجود كانا فوق مداركى، وكانت قراءة القرآن بينهما تذكرنى بالكتاب والفلقة ولم يقل لى أحد - أو لعلى لا أذكر ذلك - إن الناس كانوا قديمًا يركعون ويسجدون لملوكهم، وإن الله جعلنا أحرارًا، وعلمنا النبى ألا نسجد إلا لله وحده، ولعل الأذان هو أول ما يعرفه الطفل من شعائر الدين، وأنا أذكر أنى كثيرًا ما أنصت لصوت المؤذن، محاولاً أن أفسر كلامه، وكان آخر ما استطعت ترجمته هو قوله: «يا مليح الوجه»، فى ثنايا مدحه للنبى، ولابد أنه كان يسبق الأذان ولكنى لم أكن أميزه عن الأذان، وكان وصف النبى بملاحة الوجه يحيرنى، كيف كان شكله حقًا؟ فهناك ناس كثيرون ملاح الوجوه، وكان بائع الكتاكيت يدور فى حوارى المدينة أو القرية ينادى «الملاح الملاح ولا يرى الملاح إلا الملاح»، وأعتقد أنى فهمت ما تعنيه هذه العبارة الشعرية، ولم أستسغ مطلقًا أن يوصف النبى أيضًا بالملاحة، وكنت أتخيل وجهه منيرًا مثل القمر، وكنت أعشق القمر ولا أصفه بأنه «مليح» ومثل هذا المديح كنت أسمعه كثيرًا فى الحفلات الدينية التى كان يقيمها وجهاء أشمون بمناسبة قران أو شفاء

مريض أو ختان ولد أو نحو ذلك، وكان أبى يصحبنى إليها أو إلى بعضها، لا أدرى عن رغبة منه أو إلحاح منى، ولكن حادثة وقعت فى إحدى تلك الحفلات غيرت موقفى منها وما يشبهها وذلك أنه حين بدا علىَّ النعاس، عرض ابن صاحب الدعوة - وكان غلامًا يافعًا - أن يوصلنى إلى منزلنا الذى لم يكن يبعد سوى بضع خطوات وحين سمعنا صوت السقاطة وانفتح الباب وأصبحنا عند أسفل السلم، إذا هو يحتضننى ويقبلنى بشدة لم أكن ألفت هذا، وقد حدثتك أن التقبيل لم يكن شيئًا عاديًا فى أسرتنا، فكيف بهذا الغريب الذى شعرت بشذوذ حركته؟ بعدها أصبحت أنفر من كل غريب، خصوصًا إذا كان يكبرنى، كما كرهت تلك الحفلات الدينية والقرفة التى تشرب فيها، والغناء الذى ينشد فيها ولابد أن ذلك أراح أبى منى، وإن لم يعرف قط بما حدث.

ولكن أشد ما أغضبنى كان أبى نفسه ومن سوء حظ الآباء أننا لا نستطيع أن نتذكر ما فعلوه لنا فى السنوات الأولى من أعمارنا عندى صورة تذكارية من مدرسة المساعى المشكورة الابتدائية بأشمون، وهو جالس فى صف المدرسين، يحملنى فى حجره طفلاً لعله لم يتجاوز السنة الأولى من عمره إلا قليلاً، وفى يمينه كتاب يظهر عنوانه فى الصورة «تهذيب البنين» فلابد أنه اهتم بتهذيبى كما اهتم بأن أكون معه فى الصورة التذكارية، تفاؤلاً بأنى سأكبر وأصبح تلميذًا كالتلاميذ الذين يقفون خلفه لابد أن حبانى بالكثير من حنانه أيضًا، وإلا ما خرق القواعد بإظهارى فى هذه الصورة الرسمية وقد قالت لى أمى أيضًا إنى شغفت قرابة هذه السن بركوب السيارة، وكانت اختراعًا جديدًا، فكان يأخذنى لنركب سيارة أجرة تطوف بنا المدينة هذا الذى أراه فى الصورة وهذا الذى حدثتنى به أمى لم يبق فى وعيى منه شىء، وإذا كان وعيى قد بدأ - كما حدثتك من قبل - بأنى لست ابن أمى وأبى، فقد نما هذا الوعى وترعرع على شتمهما لا تسئ فهمى أنا الذى كنت أشتمهما بالطبع لم يكن فى وسعى أن أنطلق - ولو همسًا - بهذه الشتيمة (تهذيب البنين)، ولكنى كنت أدير وجهى وأتمتم بما لا يسمعه أحد وقد سأت أحد أحفادى قبل فتر وجيزة: ألم تكن تشتمنا فى سرك أحيانًا؟ حتى ولا أباك وأمك؟ خيب الحفيد أملى - كالعادة -، فتأكدت أننى إنسان جبلت على الشر،

وأننى لست شريرًا بدرجة عادية، وأن الأحسن أن أحتفظ بما فى نفسى لنفسى، ولكنى مع الأسف لا أستطيع، وهأنذا أكتب محاولاً أن أقول لك كما قال بودلير: «يا شبيهى، يا أخى» وأين أنا من بودلير؟

لا شك أن أبى صحبنى إلى المساجد طفلاً كما كان يصحبنى إلى الاحتفالات الدينية، ولا سيما حين انتقلنا إلى ذلك البيت الذى اشتراه فى أشمون مواجهًا لجامع الغمارى، وكان فيه مستقرنا سنتين أو ثلاثًا قبل أن نغادر أشمون إلى شبين، ولكننا كنا نزور أشمون فنقيم به شهرين أو شهرًا من كل صيف، وفى أحد هذه الأصياف مات أبى وهو يختم صلاة العصر فى جامع الغمارى.

ما الذى أغضبنى من أبى هذا الذى كانت سيرته كالمسك فى أشمون وما حولها، حتى أن من يلقانى اليوم من تلاميذه القدامى لا يعرفنى - بعد أن أجهدت نفسى طوال هذه السنين لأكون إنسانًا معروفًا - إلا أنى ابن الشيخ محمد عياد، الذى حببهم فى العربية، وكان صوته بتلاوة القرآن يبث الخشوع فى قلوب الأنقياء والعصاة.

أظن أننى كنت قد كففت عن التفكير جديًا فى أمر الدين منذ سولت لى نفسى أن أسأل المدرس فى حصة الديانة (وكان - على ما أذكر - عمى الشيخ نور زميل أبى وصديقه، إذ إن أبى كان - عن قصد أو غير قصد - لا يدرس أبدًا للفصل الذى ألتحق به): من الذى خلق الله؟ بدا لى هذا السؤال ضروريًا وملحًا بعد أن عرفنا أن الله هو خالقنا وخالق كل شىء ولكنى كنت جبانًا فأوحيت بهذا السؤال إلى جارى، وإذا بثورة عارمة من الأستاذ قلت لنفسى: الأحسن ألا أفكر فى هذا الدين، أنا مسلم لأن أبى وأمى مسلمان، وعلىَّ أن أصلى إن استطعت، ولكنى لا يجب أن أسأل عن شىء.

أما حين وقعت هذه الحادثة التى سأرويها لك الآن، فلم يكن فى استطاعتى ألا أفكر كان يقيم معنا أخ لى غير شقيق، تعودت رؤيته كما تعودت أن أرى أبى وأمى، ولعلى لا أخطئ أو أبالغ إذا قلت إنه كان أحب إلى منهما لم أكن أهابه مثلهما، بل كنت أحبه فحسب، ولا سيما حين يحضر لى اللعب والحلوى - وكثيرًا ما كان يفعل - وحين سقطت على ذراعى وأنا أتزحلق على درابزين السلم مع ابن الجيران، فأخذنى فى عربة أجرة إلى القاهرة، وما زلت أذكر شعورى بالراحة رغم ذراعى المكسورة، والهواء يهب لطيفًا من شباك العربة كانت مسافة طويلة جدًا أطول بالتأكيد من جميع النزهات التى أخذنى فيها أبى، والتى لم أعد أذكرها، وفى القاهرة عشت أيامًا بين أفراد الفرع الآخر من الأسرة ولكنى سأعود إلى هذا فيما بعد.

كان أخى - محمود كما يسميه أبى، وسى محمود كما تسميه أمى وكما تعودت أن أسميه فى طفولتى، والأستاذ كما يسميه أشقاؤه وكما تعودت أن أسميه فيما بعد - واحدًا من أربعة محامين لهم مكاتب فى أشمون، أى أنه كان شخصًا مرموقًا فى البلدة، كما كان يذكر دائمًا فى محيط الأسرة نموذجًا للذكاء والهدوء والجد، حصل على «البكالوريا» وهو ابن خمس عشرة سنة، وكان الأول، فدخل مدرسة الحقوق التى لم يكن يدخلها إلا أبناء الكبراء والموسرين مالى أراه اليوم جالسًا أمام أبى منكس الرأس، يسمع منه أقسى عبارات اللوم وهو لا ينبس بحرف؟ فهمت - وهذا هو الأدهى - أن أبى يطرده من البيت وفهمت أيضًا أن ذنبه الذى لم يستطع أبى أن يغفره له هو أنه رجع إلى البيت الليلة البارحة سكران، وأن أبى اكتشف ذلك بنفسه حين سمعه يتقيأ، وشم رائحة فمه.

شعرت أن حاجزًا يقوم بينى وبين أبى إذا كان أبى يحبنى فلابد أنه يحبه أيضًا، بل يجب أن يحبه أكثر، لأنه أكبر وإذا كانت غلطة واحدة تكفى لأن نفارق من نحبهم فكيف نثق بهذا الحب؟ لم يعد البيت هو البيت بعد أن خرج منه أخى هل مضت ساعات أو أيام قبل أن يجهز سكنًا مستقلاً، فى الطرف الآخر من البلدة، ويبعث إلى شقيقتيه لتحضرا من القاهرة وتنضما إليه؟

كان أبى رجلاً دينًا - ما فى ذلك شك - ولكنه لم يكن متزمتًا فى وقت من الأوقات كان مواظبًا على شرب قدح من البوظة كل يوم، والبوظة، بالمصرى لا بالشامى، نوع من الجعة يصنع من الخبز أذكر بائعًا كان يمر علينا، فى أول منزل سكناه بأشمون، فيملأ قدحين ويتركهما على منضدة فى أسفل الدار، وكنت أنا صاحب القدح الثانى لأنى استطبت طعمها ولم ير أبى بأسًا بأن يشركنى معه فى شربها، وكنت أعرف من أقوال الناس أن شرب كمية كبيرة من هذه البوظة يسكر كما تسكر الخمر، وكنت أعلم أكثر من هذا أن أبى اعتاد تعاطى الأفيون زمنًا ولم يقلع عنه إلا حين رأى أناسًا محترمين يقادون إلى السجن بسببه.

على كل حال، لم يكن الطرف الآخر من البلدة بعيدًا علىَّ وفى أيام العطلات على الخصوص لم تكن أمى تنتظر أن أوجد فى البيت إلا فى أوقات النوم أو تناول الطعام كان هذا - بالطبع - حين سكنا فى شبين الكوم، لأذهب إلى المدرسة الثانوية، أى أننى كنت قد بدأت أبنى شخصيتى المستقلة أصبح قضاء عطلة الصيف فى أشمون معناه البقاء أطول مدة فى منزل أخى هل كان هذا هو السلوك الطبيعى حين بلغت هذه السن؟ هل كان فيه - أيضًا - نحو من الاحتجاج على مسلك أبى نحو أخى؟ هل كان انتمائى إلى أخى غير الشقيق، أكثر من أبى وأمى، نوعًا من الرفض لأى انتماء؟ هل بدأت مسيرة «التمرد المستتر» منذ سن العاشرة؟ نعم، إن تمام العاشرة من عمرى كان بداية مرحلة جديدة من جميع الوجوه، تخللتها أزمة المراهقة، وختمت ختامًا سيئًا بقصة أخرى بينى وبين أبى، لم تكد تزول آثارها حتى فارقنا إلى الأبد.

ألم أقل لك إنه كان يختم صلاة العصر فى جامع الغمارى، حين سمعت من ينادينى بصوت لا ينبئ بخير دخلت الجامع فإذا لمة فى ركن، وبعض الواقفين يقول: أفسحوا لا تحجزوا الهواء عنه، لم أجرؤ على الاقتراب منه، لم أره قط ميتًا، كانت آخر صورة له وهو نازل إلى الجامع، يصلح طرفى الجبة على عادته ويقول لى: «صل يا شكرى» والله لقد أبرأ ذمته وكان بى رفيقًا مع ذلك، فكيف أغفر لنفسى أنى لم أطعه؟ لو كنت بجانبه وهو يصلى! لو نظرت إلى وجهه قبل أن يحمل إلى مدفنه! لو سمحت لى أمى أن أنظر إليه ولو نظرة واحدة فى تلك

الليلة التى قضاها مسجى فى داره! كل ما فعلته فى ذلك اليوم أن جريت إلى منزل أخى محمود وقلت له كلمة واحدة: أبى.

رحمة الله عليك يا أبى أعلم أنى كنت ولدًا مطيعًا فى الظاهر لم أسبب أى مشكلة لك فى المنزل أو فى المدرسة، ومع ذلك أصرت أمى على أن تأخذنى ذات يوم إلى ناظر المدرسة لكى يقول لى فى حجرته المعتمة وأنا واقف لا أعرف ما ذنبى: إننى يجب أن أكون مطيعًا لأبى وأمى هل كانوا يعرفون ما فى داخلى؟

الآن يا أبى لا أدرى هل أسألك أن تغفر لى أم أقول لك إنى سامحتك كما سامحت أمى؟ لا دعنى أقول لك شيئًا آخر لقد سعدت بتلك المكالمة التليفونية التى تلقيتها منك منذ أيام قلائل، وكنت أرى وجهك ضاحكًا مستبشرًا، لا شك أن التليفونات عندكم أصبحت بالصوت والصورة، ولكننى أنا الذى رأيت صورتك، فهل رأيت صورتى أيضًا، وهل أنت راض عنى رغم كل شىء؟

وأنت يا قارئى العزيز لماذا تريد أن تشبكنى على لوحة الزمن كأنخى صورة مسطحة؟ لا تنس أنى شيخ وأنى بدأت معك هذا الحديث حين جاوزت السبعين بقليل، وقد شغلتنى الشواغل عن إتمامه سنوات، وهأنذا أعود إليه بعد أن جاوزت الخامسة والسبعين، وإذا كنت أسترجع معك طفولتى الأولى فلا يعقل أن أدخل مرة أخرى فى البنطلون القصير، إنما لابسو البنطلونات القصيرة هم أولئك اللاعبون الذين يتقاذفوننى أو يتنازعوننى كالكرة فى الملعب اللاعب الأخطر، والهداف الأعظم، لا شك هو الموت وقد أسكننى الهدف مرات مت مع كل من ماتوا، ولكنهم كانوا يعيدوننى إلى الملعب لتتقاذفنى الأرجل أو تتنازعنى والناس يقولون الآن إنى ألعب، أو يلعب بى، فى الوقت الضائع ولكنى لا أخافك أيها اللاعب الخطير، وماذا يجدى الخوف؟ وأبى كلمنى من هناك، وكان ضاحكًا مستبشرًا نعم، لا أنكر أنى خفتك فى وقت من الأوقات، بل إن الخوف منك لازمنى سنين طويلة، حتى خيل لى أن الحكيم هو من يترك الدنيا قبل أن تتركه، لا أعنى الانتحار - أعوذ بالله - ولكننى أريد أن يعيش المرء عيشة الزهاد، ثم قلت لنفسى إن هذه الفكرة أشد إجرامًا من الزنى أو القتل أليس معناها أننا نستقل

نصيبنا من الدنيا، كالطفل الذى يضرب عن الطعام لا زهدًا فيه، ولكنه يريد طعامًا أشهى؟

أخيرًا لم أجد بدًا من أن أصادقك يا موت وها أنت ذا تبعث إلى رسولك فى تلك الفجرية، ثم تمهلنى سنين، أشكرك يا موت، وأشكر خالقك وخالقى ترى هل تمهلنى حتى أتم هذه الصفحات؟

معرفتى بالموت كانت مبكرة جدًا، قبل أن أشهد موت أى إنسان، بل ربما قبل أن أسمع بموت أن إنسان حس غفل، محض، بالفناء طالب الطب الذى يدخل المشرحة لأول مرة ربما أصابه الرعب أو الغثيان - هكذا يروى عن المازنى - فمثل هذا الطالب لديه فكرة مسبقة عن الموت، إنه لا يعرف هذا الإحساس الغفل المحض. حفار القبور الذى يحدث هملت، ويرفع بيده جمجمة مضحك الملك، فيلسوف يمكنه أن يتعامل مع الموت كفكرة مجردة، أول رؤيتى للموت لم تكن مفاجأة ولم تكن معنى كانت شيئًا آخر يترسب فى الذاكرة، ولا يفهمه المرء إلا ببطء قطرة قطرة، مثل سم بطىء.

كان أول بيت سكناه فى أشمون بيتًا ريفيًا فى غرب البلد، فيه قاعة الفرن والزريبة مثل بيتنا فى البلد لا أستطيع أن أذكر هذا العهد جيدًا ولكنى أذكر أنى حين كبرت قليلاً كانت أمى ترسلنى أحيانًا لأطلب شيئًا مما لا يوجد إلا عند الفلاحين، أذكر منه ما يسمونه «المسمار» وهو أول ما ينزل من لبن الجاموسة، يضعونه على اللبن فيتخثر ويصبح لبأ أذكر «خالتى أم إسماعيل» صاحبة البيت وأذكر أنه كان فى تلك الجيرة أطفال ألعب معهم أحيانًا وكانت لعبتهم الغريبة هى الصعود إلى تلة قريبة عليها مقبرة قديمة مهجورة أتذكر القبور المفتوحة وأتذكر ما فيها من العظام ما أحقر الإنسان وما أحقر شأنه! ربما أقول ذلك الآن ولكن كيف كنت أفكر آنذاك؟ هل لهذا المشهد علاقة ما بلعبة كنا نلعبها؟ الضبور («الزنبور» أو الزنبار بالفصحى) حشرة طفيلية بغيضة لا نعرف فائدتها حتى الآن حسب اعتقادى، ولا أعرف ما رأى المدافعين عن الطبيعة فى أمرها، سمعنا أن هناك تجارب لاستخدام سم الثعابين فى قتل الخلايا السرطانية، ولكننى لا أعرف أى فائدة للضبور، هو أشبه بنحلة ضخمة، هو بلطجى النحل، يهاجم خلايا النحل وله لسعة تقرب فى قوتها أحيانًا من لسعة العقرب، كانت لعبتنا الكبيرة والمثيرة هى اقتناصه وتسخيره، وهى عملية لا تتم إلا بتخطيط محكم، فأسره يستلزم الاستفراد به وخلع الطاقية عن الرأس وإلقاءها عليه وهو غافل، وعندما يبدأ فى الاضطراب داخلها نشبكه بحرية صغيرة نأخذها من شجرة سنط، ولا بأس بأن تقع على جزء من جسمه ما دامت تمنعه من الحركة، ثم نكشف الطاقية

عن مؤخرته وننزع إبرته التى تتصل بمخزن السم فى بطنه الكبير الكريه، ويصبح «التعامل معه بعد ذلك سهلاً بشرط ألا نمكنه من الهرب نأخذه بعد ذلك إلى دولاب أعددناه من قبل شىء يشبه طاحونة هواء صغيرة، إلا أن مروحتها أفقية لا رأسية فلها قاعدة من الطين المتماسك، غرس فى وسطها عود من شجر السنط أيضًا، فهو شجر نحيل قوى رغم صغر حجمه، فلاح بائس يقيم على حواف الطرقات، لا نستفيد منه إلا قليلاً من الصمغ يتكون على ساقه نثبت على هذا القائم سنطة أخرى يكون طرفها الغليظ مغروزًا فى القائم أما طرفها المدبب فيتوسط عصا مماثلة فى وضع أفقى بحيث يمكن أن تدور على القائم عندما يصبح جهاز التعذيب مستعدًا لاستقبال المجرم الأسير نثبته بالسنطة فى القائم، والمكان المفضل لغرس السنطة فى جسمه هو وسطه الذى لا يخلو من رشاقة ولكنه متين بعكس غلاف السم الذى هو بطنه إذا ثبتنا السنطة بالرأس فلا مانع يحاول المسكين أن يطير فيدور الدولاب، ويظن أن مزيدًا من الجهد يمكن أن ينفعه فتشتد حركة الدولاب ونحن نتفرج.

هل كنا فلاسفة صغارًا نحاول بهذه اللعبة أن نتمثل عبثية الحياة على هذه الأرض؟ لا يبعد ذلك، ما دمنا قد بلغنا درجة من النض العقلى تمكننا من اكتشاف قواعد النحو والصرف كما يقول تشومسكى، وإلا فكيف تفسر أن هذه اللعبة ما زالت ماثلة فى ذاكرتى، مع أنى لا أتذكر فى أى سن تعلمتها؟ ولكنها ـ بكل تأكيد ـ لم تكن بعيدة عن السن التى سألت فيها ذلك السؤال المرعب: من الذى خلق الله؟ وكان ذلك فى السنة الأولى أو الثانية الابتدائية، أى حين كنت بين السابعة والثامنة.

أما اكتشافى للفن فقد سبق هذه المرحلة بكثير وقد أخبرتك بقصة الغلام الذى حاول أن يستغل براءتى، وإليه أعزو انصرافى عن سماع الموالد والتواشيح الدينية وأنى لا أشرب القرفة إلا كعلاج للكحة أما الفن التشكيلى فيبدأ عندى بالألوان، وبالذات ورنيش الأحذية كان يأتى إلى منزلنا كل يوم أو كل بضعة أيام ـ خصوصًا حين كان أخى محمود يقيم معنا ـ شاب لم يسهل علىَّ تصنيفه بين الصبية أو الرجال، ولا حتى بين الذكر والأنثى فلم يكن فى وجهه أى أثر للشعر

وكان لونه بين الحمرة والسمرة، ولكن الغريب أنى كنت أربط بين لون وجهه ومهنته وخصوصًا أن لون أصابعه يشبه لون وجهه، وأن ثوبه الذى كان نظيفًا فيما عدا ذلك، يحمل آثارًا من الورنيش كان يجلس على بسطة السلم ليلمع أحذية أبى وأمى، وأخى محمود، وأخى الأكبر محمد عندما يزورنا، وأخى الأصغر (أى من زوجة أبى الأولى) عبدالوهاب الذى كان يقضى شطرًا من عطلة الصيف عندنا، ولعلى أحدثك عنه قريبًا كنت أجلس بالقرب من هذا الشاب (يغيظنى جدًا أن اسمه يهرب من ذاكرتى) وأنا أراقب فعله بالألوان مسحورًا مبتهجًا، إلى درجة أن أمى سألتنى مرة: ماذا تحب أن تكون عندما تكبر، فأعلنتها برغبتى فى أن أكون ماسح أحذية، وأضفت، كأنما لأطمئنها إلى أن الرزق موفور والحمد لله: لأمسح أحذية إخوتى لا أذكر إن كانت ضحكت أو بكت.

وكان هناك فنان آخر يلعب بالألوان وأسحر أنا بمشاهدته وهو يعمل فى دكانه هل سمعت عن عامل يسمى «اللبودى»؟ اللبودى معناه صانع اللبد، واللبدة غطاء للرأس لعلك تتمكن من رؤيته فى متحف أو فيلم من أفلام الثلاثينيات، مخروطى الشكل تقريبًا مثل قمع السكر، ومتعدد الألوان، فمنه البيج والبنى والأسود والرصاصى بدرجاته، وهو يصنع ـ كما يدل اسمه ـ من اللباد، أى من نسيج متداخل، لا تظهر خيوطه ولا ينبغى أن تظهر، مثله مثل الطربوش إلا أن الطربوش يجب أن يكون أحمر، ولم أر أحدًا يلبس طربوشًا أخضر بزر أبيض إلا الممثل محمد عبدالقدوس، والد إحسان عبدالقدوس، كنت أرى اللبدة قطعة مستطيلة من القماش مفرودة على منضدة طويلة، يجلس اللبودى أمامها متربعًا، أما كيف ينطبق طرفًا هذه الشقة من القماش ويستدير طرفها الأعلى فسر لم أتمكن من اكتشافه، إذ لم يكن من اللائق أن أطيل الوقوف أمام الرجل ولكننى كنت أتأمل يديه وهما تمسدان القماش بسائل رغوى يشبه الصابون، ويتفق لونه مع لون القماش.

مواهبى الفنية ضاع فى المدرسة بل محيت محوًا، حصة الرسم فى المدرسة الإبتدائية لا يمكننى أن أذكر عنها شيئًا، أما فى المدرسة الثانوية؛ حيث كنا نتمتع بحجرة مستطيلة اسمها حجرة الرسم، تتوسطها منضدة كبيرة وحولها حلقة

بيضوية من المناضد التى يجلس علمها التلاميذ، وفى ركن من الحجرة مكتب للأستاذ صبرى يسة الذى استلمنا من السنة الأولى حتى الخامسة (البكالوريا) فكنا ندخل الحجرة فنجد القلة أو البلاص أو الإبريق تنتظرنا على منضدتها الكبيرة المتميزة، لا أذكر الآن ماذا كان يصنع الأستاذ صبرس يسة، لعله كان يشرح لنا قواعد المنظور ببضع كلمات، أو يذكرنا بما شرحه من قبل، أو يتركنا نتصرف اعتماداً على ذاكرتنا وأحياناً يمر علينا ونحن نرسم، أو نذهب إليه بكراسات الرسم وهو جالس إلى مكتبه أما الذى أذكره جيداً فهو وحستى فى علبة الألوان المائية مات عشقى للألوان بعد أن فشلت مرات متعددة فى ضبط حركة الفرشاة بين فنجان الماء وعلبة الألوان وورقة الرسم، وخصوصاً حين تسبح الألوان بعضها على بعض انحصر عشقى للألوان فى أشياء مثل حمرة الشفق وزرقة السماء وخضرة أوراق الشجر حين يغسل المطر ما التصق به من الغبار، كما انحصر إحساسى فى الإيقاع الذى لم يكن يحتاج إلى إلف للموسيقى، فقد استطعت أن أميز بحور الشعر منذ وقت مبكر.

لعلى أحدثك فيما بعد عن أساتذة اللغة العربية، وما عملوه لتنفيرى من لغتنا الجميلة ولكننى لابد أن أشكو إليك مدرس الحساب الذى استلمنى من السنة الأولى الابتدائية إلى السنة الرابعة، وكان تأثيره فى توجهى نحو الأدب أقوى من تأثير أساتذة اللغة العربية على طول السنين من الابتدائية إلى الثانوية.

طاقة الحياة لابد أن تجد لها مخرجاً، فإذا سد أمامها باب فلابد أن تجد بابا آخر وهذا ما فعله معى مدرس الحساب سد أمامى باب الرياضة بالضبة والمفتاح، فلم أجد أمامى إلا باب اللغة والأدب ـ هذه هى الصراحة ـ فولجته مازلت أذكر ذلك المدرس بكل تفاصيله: جسمه، وجهه، صوته، نظارته السميكة التى كانت أصغر من محجريه، كل ما كنت أسمعه عنه من نميمة زوجات المدرسين، وأمى وسأبدأ بهذا لطرافته كانت أمى تقول عن زوجته ـ التى لم تكن تعرفها ولا تزوها ـ مسكينة، خادمتها أصبحت ضرتها أما كيف حدث ذلك فلم يكن من اللائق أن أسمعه، أو سمعته ولم أفهمه.

كان عصبيًا ووطنيًا، وفديًا متحمسًا، أظنني كنت فى السنة الثالثة، أى بين سن الثامنة والتاسعة، حين دخل مدرس الحساب فصلنا وقال لنا إن وزارة محمد محمود أوقفت الدستور، وإننا يجب أن نخرج فى مظاهرة لنثبت أن طلبة أشمون قد استجابوا مثل غيرهم لنداء الوطن.

كان أخى محمود يشترى مجلة الكشكول، ومجلة روز اليوسف، ومجلة البلاغ الأسبوعى ومجلة السياسة الأسبوعية، وهاتان الأخيرتان لم أتمكن من فهمهما إلا فيما بعد، أما فى ذلك الوقت فقد كان من السهل أن أقرأ الصور وما تحت الصور وأن أعرف شيئًا عن الوفد والأحرار الدستوريين ومحمد محمود صاحب اليد الحديدية المهم أننا أطعنا أوامر الأستاذ الوطنى وخرجنا فى مظاهرة طافت بجميع شوارع أشمون، ورجعت منها إلى البيت مبحوح الصوت، وكانت أول وآخر مظاهرة أشترك فيها.

أولاً ـ أحب أن أقول لك إن كنت كاتب قصة، أو تفكر أن تكون كذلك، أقول لك بكل حزم إن شخصية الأستاذ... (طبعًا أذكر اسمه ولكن ليس من اللائق أن أصرح به وأيضًا لا أريد أن أدخل مع أبنائه أو أحفاده فى مشكلات) شخصية هذا الأستاذ».... «لا يجوز لك أن تنقلها من هذه الذكريات إلى قصة أو رواية تزعم أنها من تأليفك أنا الذى عانيت ما عانيت من هذا الأستاذ، وتحول مجرى حياتى من عالم رياضى من طبقة نيوتن أو أينشتاين إلى أديب لا يساوى شيئًا، أنا أحق الناس بأن أستغله فى عمل من أعمالى القادمة وأنا مستعد لمقاضاة أى إنسان يحاول أن يسلبنى هذا الحق.

عدنا إلى أصل الموضوع وأصل الموضوع إن كنت تذكر ليس وطنية هذا الأستاذ ولا خادمته التى أصبحت زوجته بل الكيفية التى تمكن بها من خنق موهبتى الرياضية قبل أن تتمكن من مجردالتعبير عن نفسها كنت فى السنة الثانية أو الثالثة، وكان عندنا أنواع من المسائل لا تتغير، منها ما يتعلق بالبيع والشراء والمكسب والخسارة، وصنف آخر فيه صنبور (أى حنفية) ينزل منها ماء يملأ مترًا مكعبًا فى كذا دقيقة، والحوض مكعب طوله كذا وعرضه كذا وعمقه كذا، وهناك بلاعة تصرف كمية كذا من الماء فى كذا دقيقة، فبعد كم دقيقة يمتلئ الحوض؟

بالطبع لا أحد فى كامل عقله يفعل هذا، معظمنا أولاً عندهم حنفيات وطسوت «نقالى»، وبفرض أن هناك صنبورًا وحوضًا وبلاعة وأيضًا نريد أن نملأ الحوض فلماذا لا نسد البلاعة أولاً؟ أذكر بكل فخر أنى نفذت من سخف كهذا ووجدت طريقة لحل المسألة ووصلت إلى الجواب الصحيح ولكن مدرس الحساب لم تعجبه طريقتى، وزعم أنه علمنا فى الفصل طريقة أفضل، الحقيقة أنى لا أذكر أنه علمنا شيئًا، فقد كان مشغولاً بالسياسة معظم الوقت إذن، فمن علمك هذه الطريقة؟ أكدت له مرة بعد مرة أنى اهتديت إليها بنفسى، وأما إصراره على أن أخى «الأستاذ» هو الذى علمنى إياها، لأن هذه هى الطريقة التى كانت مستخدمة على أيامه، أعطيته الاعتراف الذى أراده كى أستريح من إلحاحه وبعد ذلك أضربت إضرابًا تامًا عن استخدام عقلى فى مسائل الحساب، فلم يكن من المعقول أن أتسامح فى قبول هذه المقدمات غير المعقولة وأصل إلى النتيجة الصحيحة، ثم يرفض مجهودى وأتهم فوق ذلك بالكذب حيث أكذب فعلاً، انقطعت العلاقة بينى وبين مادة الحساب ولا أدرى كيف انتقلت حتى وصلت إلى امتحان الشهادة الابتدائية وهنا جاء الخلاص من الله سبحانه وتعالى اكتشف ليلة الامتحان أن ورقة الأسئلة قد تم تسريبها، ووضعت ورقة أخرى بصورة مستعجلة أجمع العارفون على أنه لم يكن - من المستطاع - تصور امتحان أسهل منها، فاستطعت أن أحصل فى هذا الامتحان على درجة ٢٦ من ٥٠، أى على النهاية الصغرى زائدة درجة واحدة وأثر ذلك فى مجموعى الكلى فكان ترتيبى حول الوسط.

هل يمكن لأحد أن يعلم أحدًا شيئًا؟ أشك كثيرًا. هناك استثناء واحد: يمكنك أن تعلم شخصًا آخر كيف يعمل جهازٌ معين، سواء أكان هذا الجهاز لغة أرقامًا أم لوغارتمات أم حاسوبًا. فيما عدا ذلك لا يصنع المعلم شيئًا إلا أن يحول بين المرء وعقله، ولذلك لا يستغرب أن يكون أحسن التلاميذ هم الذين يتخرجون على أيدى أسوأ المدسين. هكذا يقال مثلاً عن ابن سينا. يمكننى أن أقول بشىء من المجازفة إن تاريخ التعليم هو تاريخ محو التعليم. أنا لا أعرف شيئًا عن التعليم فى مصر القديمة مثلاً ولا فى سومر أو بابل، ولا يبعد أن كل التعليم عندهم كان تعليم مهارات، كيف ترص الحروف أو الأعداد إن كنت كاتبًا أو حاسبًا، كيف ترص الحجارة إن كنت بناء، كيف تشق الجلد إن كنت جراحًا، إلخ، ولكننا نعرف أن السوفسطائيين كانوا أول طائفة من المعلمين، لم يكن لهم عمل إلا تشويش الفكر، وأن سقراط، أبا الفلسفة، لم يكن له عمل إلا محو ما علمه السوفسطائيون لشباب أثينا، ولذلك كان يشبه عمله بعمل السيدة والدته التى كانت تولد النساء، أى تساعدهن حتى يخرجن الأطفال من بطونهن، فهو أيضًا لا يعطى تلاميذه أفكارًا من عنده، ولكنه يساعدهم على أن يلدوا بنات أفكارهم. فلو لم يوجد السوفسطائيون ما وجد سقراط. والمعلمون حتى اليوم إما سوفسطائيون يشوهون الحقائق ويدربون تلاميذهم على إفساد عقول الآخرين، وإما سقارطة يمحون ما علمه السوفسطائيون.

هل أنا سقراط أم سوفسطى؟ لست بأحدهما، إنما أنا معلم مستقيل. وآخر ما انتهيت إليه فى صناعة التعليم هو قلته لشابه جاءتى. وسألتنى سؤالاً مباشرًا: أريدك أن تعلمنى.... ـ وذكرتْ شيئًا أنفقت فى تعليمه بضع عشرات من السنين. قلت لنفسى هذا أذكى سؤال سمعته. وقلت لها: اسمعى يا ابنتى، ليس عندى شىء أعلمك إياه. أنا واحد من ألوف، كلهم وضعوا ما يسمى علمهم فى كتب، وكل ما عندى لك نصيحة حتى لا تتوهى بين الأساتذة أو بين الكتب: ضعى نفسك دائمًا فى مكان المتكلم أو الكاتب: ماذا يريد هذا الرجل أو هذه المرأة أن يقول أو تقول؟ ولا توهمى نفسك بغير الحقيقة. فالغالب أن الناس يتكلمون ويكتبون دون أن يقولوا شيئًا، لأنهم ليس عندهم ما يقولونه، ولكن إذا حدث أن وجدت أحدهم يقول شيئًا فلا تظنى أن هذا الذى فهمته منه هو كل ما يمكن أن يقال. اعرضيه على عقلك، اقبليه أو ارفضيه، فلابد أن تجدى نفسك متورطة فى عملية التفكير، وهذا كل ما عندى من العلم. ألم أعلنها من قبل؟ فيما عدا أولئك الذين علمونى كيف أقرأ الحروف، وكيف أكتب الأرقام بعد أن أعد على أصابع يدى، لا أحتفظ بذكرى طيبة للمدارس والمدرسين.

ولكن أشياء كانت تحدث فى المدرسة، غير التعليم، تركت فى نفسى آثارًا باقية. لقد حدثتك عن قضية الغلام اليونانى وعشاقه الأربعة أو الخمسة. وحدثتك عن زيارتى مع أبى للناظر فى حجرته المعتمة والتأنيب الذى تلقيته بدون ذنب منى. وبقى أن أحدثك من جديد بحديث الموت: ولا أدرى لماذا أعود إليه دائمًا. ولكنك يجب ألا تنفر من هذا الحديث فالانشغال بالموت هو الوجه الآخر لحب الحياة، والذين فهموا الحضارة المصرية القديمة على وجهها الصحيح يعرفون ذلك.فالمصريون القدماء لم يؤمنوا بالحياة بعد الموت إلا لأنهم عرفوا قيمة الحياة. ولم يقاتلوا بشجاعة إلا لأنهم كانوا لا يهابون الموت. وأنا لا أعرف قتالاً ولا نزالاً، ولكننى اكتسبت شيئًا من البلادة أمام الموت ـ ولا أسميها شجاعة - بفضل زيارتى للمقبرة المهجورة.

أما فى المدرسة فقد رأيت أثر الموت فى الأحياء عندما مات أحد مدرسينا، وكان ابنه تلميذًا معنا فى الفصل السيمترية، وعندما حدث العكس أيضًا ـ بنوع من السيمترية الساخرة ـ فمات تلميذ معنا فى الفصل وكان أبوه يدرس لنا أيضًا.

جلال عبدالرازق عاد إلينا بعد إجازة نصف السنة بادى الذهول. علمنا أن والده - الشيخ عبد الرازق - ولا أذكر الآن ماذا كان يدرس لنا - قد توفى فجأة وهم يقضون الإجازة فى بلدهم. ولكننى وإن نسيت ما كان يعلمنا إياه الشيخ عبد الرازق فإنى لم أنس صورته. كان وسيمًا أنيقًا، أميل إلى البدانة والقصر. لا أذكر شيئًا من أقواله - رحمه الله - إلا حكمة سمعتها منه مرة أو أكثر من مرة: «رب أكلة منعت أكلات». ولا أدرى لماذا أتصور أنه كان يتنبأ بموته، وأنه أكل هذه الأكلة. أما جلال فقد حدثنا وعيناه سارحتان فى المجهول، أن أباه حين مات «رأينا ثعبانًا يخرج من فمه». بعد مدة قصيرة تركنا جلال، وسمعنا أنه أصبح يعيش مع خاله فى مدينة أخرى. أما زميلنا الذى مات فكان اسمه جمال صادق، وأبوه صادق أفندى كان يدرس لنا «الأشياء» أى المعلومات العامة، وكان أفنديًا أنيقًا، كما كان الشيخ عبد الرازق شيخًا أنيقًا. أتذكر بذلته المربعات، والبابيون الذى كان يميزه عن غيره من الأفندية لابسى الكرافتات وكان لجمال أخ يكبره، ربما بعام واحد، فقد كان كلاهما معنا فى الفصل، وكن الأصغر - جمال - هو الأذكى والأجمل. كانت على الثلاثة مسحة قاهرية تميزهم عن كل من فى المدرسة من مدرسين وتلاميذ. وأذكر أن جلالاً أخذنى مرة إلى بيتهم، ورأيت والدته، سيدة تختلف اختلافًا كليًا عن والدتى وصديقتها خالتى أم محمود، دع عنك خالتى أم إسماعيل التى كانت تمثل همزة الوصل بين أشمون - المركز - وكفر شنوان القرية الصغيرة. كانت زوجة صادق أفندى نحيلة جدًا بالقياس إلى أمى أو خالتى أم إسماعيل، وحتى بالقياس إلى خالتى أم محمود، وخصوصًا أنى رأيتها فى قميص بحمالات وكانت تتزين وتضع الأحمر والأبيض حسب لغة أمى - أمام شىء، عرفت - فيما بعد - أن اسمه «التسريحة». وكان لها شقيق يكبرنا قليلاً زارنا فى إجازة الصيف وشاركنا فى نزهتنا اليومية فى شارع المحطة، وكانت له ملاحظات قاسية على البلدة وربما علينا نحن أيضًا. غاب جمال عن الفصل أيامًا قلائل، وفجأة علمنا أنه مات. لم يبد على جلال أى تأثر حقيقى ولا يبعد أنه شعر فى أعماقه بالارتياح لموت أخيه الأصغر والأفضل. وجاءت حصة صادق أفندى ودخل الفصل منطفئًا، بلا أناقة ولو أن البذلة هى البدلة والبابيون هو البابيون. أظننى بدأت

من هذه اللحظة فقط أشعر بمعنى «التجلد». حاول صادق أفندى أن يبدأ الدرس، ولكنه لم يلبث أن قطع الكلام ونظر إلينا وقال اربع كلمات: أمال فين مكان جمال؟ أحسب أن ضابط المدرسة أو أحد المدرسين سمع نشيجه المكتوم واقتاده إلى خارج الفصل، ولكننى أذكره خارجًا كالأعمى وكآبة حطّت على الفصل.

فى طفولتى لم أر حادث الموت عن قرب إلا فى هاتين المرتين. وكان حديث أمى المتكرر عن أولادها الثلاثة الذين ماتوا قبلى (قلما كانت تذكر البنت) لا يسبب لى سوى الضجر. أشعر أنها تحملنى مسئولية فظيعة، أن أبقى حيًا.

الآن أصبحت عندى جملة تقفز إلى لسانى فى مواقف العزاء: نحن محكوم علينا بالحياة حكم علينا بالموت. يالها من حكمة. أى سخف فى هذه النظرة المتشائمة إلى الحياة. ولكننى أحسب أن النظر إلى الحياة على أنها واجب وقضاء لا مفر منه إنما ترسب فى نفسى من الخوف أن أفجع أمى بموتى كما مات إخوتى الذين مهدوا لى السبيل. لذلك أصبح محرمًا علىّ أن أعوم فى الترعة؛ لأن غرق الأطفال كان من أشد الحوادث إثارة للفجيعة فى القرى المصرية، وحتى ركوب البسكلتة، لأن سيارة - وما كان أقل السيارات وقتها، ولكنها كانت أشياء غريبة كالأطباق الطائرة- يمكن أن تصطدمنى. ومع ذلك فإن الدافع النفسى الذى نما فى نفسى رغم كل شىء كان يحملنى على الاقتراب من الموت بطرق أخرى. كانت هناك ماسورة غليظة نوعًا تمتد بين شاطئى الترعة، فكنت أخلع شبشبى عند أحد الشاطئين وأسير على الماسورة حافيًا، ذهابًا وإيابًا. وفى إحدى هذه المرات - وكانت عندنا خادمة صغيرة من القرية - رأتنى الملعونة فسرقت شبشبى وعادت به إلى أمى، وزعمت لها أنى كنت أتمايل على الماسورة حتى أحفظ توازنى ولا أسقط فى الترعة. ولكن كانت هناك لعبة أخرى لم تعرفها أمى قط فقد كان قطار السكة الحديد يمر فوق الترعة نفسها، ولعلك لاحظت أن القضيبين والعوارض التى تمسكه لا يحول بيننا وبين الماء شىء، وكانت لعبتنا أن نمشى على هذه العوارض، مجازفين باحتمال السقوط من بينها، وخصوصًا إذا اقترب موعد القطار. ومرة كنا فى زيارة عند خالتى المقيمة فى طنطا، فقال لى ابنها الذى كان يكبرنى بثلاث سنوات تقريبًا: تحب تمشى تحتك فاضى؟ وأخذى

لأشاهد هذه الأعجوبة، فنظرت إليه بازدراء، وقلت له إنى ألعب هذه اللعبة يوميًا.
وكان ابن خالتى هذا جبانًا رعديدًا، يحمل فى ذهنه خريطة لمدينة طنطا فيها أكثر من موضع، وأحيانًا شوارع بأكملها، تسكنها العفاريت، فإذا وصلنا إلى أولها انطلق يجرى بكل قوته حتى يصل إلى آخرها.

قبل أن يشترى أبى المنزل المواجه لجامع الغمارى سكنًا مدة فى منزل بالقيسارية، أى شارع السوق. وكانت أمامه مباشرة قهوة تأتى إليها فى المواسم «غازية» تتلوى شبه عارية أمام الزبائن. كان هذا المنظر يدهشنى كثيرًا وأنا جالس بجانب أمى نتفرج من وراء المشربية. وبالقرب من القهوة منزل أحد تجار البلد الأغنياء، وللبيت حوش كبير يقيم فيه صاحب الدار احتفالاً دينيًا لقراءة قصة المولد والمدائح النبوية كلما شفى من مرض، ولم يكن يجود بماله إلا فى هذه المناسبات، ولعله كان يعتقد أنها تطيل عمره، وكأنه يدفع ثمن تذكرة القطار لمسافة أخرى. وعندما انتقلنا إلى مسجد الغمارى أصبحت تسليتى مع أمى هى مشاهدة الذكر وسماع المداحين فى مولد ولى الله. هل كنت أشعر بمعنى ما فى هذه المشاهد الجماعية؟ لا أستبعد أن شعورًا مبهمًا أخذ يخالجنى فى سن مبكرة، بأن الناس حين يتجمعون يتحولون إلى نسخ مكررة.

أحسب أن تجاربى مع البشر كان معظمها غير سار، فقد وجدت نفسى أتذوق الوحدة حتى فى طفولتى، ولعلك تذكر أنى اتخذت بينى وبين نفسى قرارات كان من الصعب أن أحافظ عليها مستقبلاً، وفى موضوع الجنس بالذات، الذى كان يمكننى أن أؤجل التفكير فيه إلى حينه. فلماذا لم أفعل؟ هل كان فى منظر الغازية التى تتلوى كاشفة عن ثدييها وفخذيها إغراء حتى لطفل حول سن السابعة؟ منظر آخر مازلت أذكره (**نعم أنا مكبوت حقًا**). عند شاطئ الترعة، جليلة تنحنى على الترعة، وقد شمرت ثوبها الأسود عن قميصها البرتقالى،لتملأ الزلعة، هى تعلم

جيداً أن شباناً من أفندية البلد ينظرون إليها ويبتسم بعضهم لبعض، وهم جالسون فى شرفة «البورصة». هكذا كانت تسمى القهوة الإفرنجية الوحيدة فى أشمون، ونحن الأطفال أيضاً فى الشارع، لا اعتبار لنا، ولكن البذرة الخبيثة تنمو فى أعماقنا.

أصبحت الوحدة أكثر من مجرد عادة لى. أصبحت جزءاً من نظام حياتى. كنا لا نقيم فى الكفر، حيث أطفال الآسرة الذين يقاربوننى فى السن، إلا فترة من الصيف. كانت هذه هى الفترة الحافلة باللعب، وأكثر لعبنا كان عند باب الجامع - لماذا؟ ألأنهم قالوا لنا إنهم وجدونا هناك؟ إذن فهذا هو وطننا، وربما جاء أهلنا الحقيقيون ليأخذونا. ولكننا كنا نهاب دخول الجامع نفسه، كان معتماً، وأشباح الرجال داخله تبدو منذرة، هم الذين يطردوننا دائماً من أمام الباب. وكان هناك لعب فى البيوت أيضاً رغم أن معظمها ضيق. ولكن هناك جداً يحكى الحكايات، ومع الحكايات لا توجد حدود للبيوت ولا للبلاد، وينكشف لنا فلكلور العائلة شيئاً فشيئاً، ونشعر بالانتماء.

أما فى أشمون فكنت طفلاً وحيداً. دعنا من رفاق المدرسة ومن أطفال الحارة وقليلاً ما كنت ألعب معهم. أخى محمود الذى كان مثل أب صغير لى تركنا وأصبحنا لا نراه فى البيت إلا فى الأعياد، حين يأتينى ببعض اللعب، وكذلك كان يفعل أخى الأكبر محمد الذى يأتى من القاهرة ليزورنا. أقرب إخوة الدفعة الأولى إلىّ كان أخى عبد الوهاب الذى يقضى معنا جزءاً من عطلة الصيف، يفضل أن يقضيها معنا على أن ينزل فى بيت أخيه الشقيق؛ لأنه لم يكن على علاقة طيبة مع الأختين. ولكنه كان يكبرنى بثمانى سنوات. مع ذلك كان يصحبنى معى إلى القهوة؛ حيث يلعب الطاولة مع إبراهيم مازن كاتب أخى محمود، ويتكلمان عن آخر أغانى عبد الوهاب، «يا جارة الوادى» أو «مين عذبك». وماذا كان يمكننى أن أفعل فى هذه الجلسات غير الفرجة؟ والفرجة، مع طول الزمن - تعلمك أن تعيش مع أفكارك، مهما كانت أفكارنا ساذجة. ويصبح لك رفيق دائم - هو نفسك - تألفه أو لا تألفه، ليس معك غيره.

كانت غرفة الجلوس عندنا تتألف من ثلاث كنبات. إذا تكلمت عن كنبة أتوقع أن تفهم أنها كنبة من النوع العربى، وأحيانًا يقال إسطمبولى، وإن لم تكن رأيتها فى حياتك فهى لا تختلف كثيرًا عن الكنب الذين يصنعه النجارون الآن، بحيث يكون صالحًا للجلوس أو للنوم حسب الحاجة. ستصاحبنى كنبتان من الثلاثة حتى الجزء الثانى من هذه السيرة الذاتية. أما فى ذلك الوقت فكانت الكنبات الثلاث تشغل ثلاثة أضلاع من الحجرة وبين كل كنبتين فراغ مربع، أقل من نصف متر فى نصف متر، وكان أحد الركنين هو الصومعة المختارة للناسك الصغير.

ولكن كيف يكون ناسكًا - ولو صغيرًا - وهو جالس فى هذا الركن يأكل قطعة حلوى اشتراها من دكان فى أسفل البيت؟ على كل حال كان لأخى عبد الوهاب تفسير مختلف حين رآنى فى هذه الحالة. فقد اتهمنى صراحة بأنى مختبئ حتى أضمن عدم مشاركته لى فى قطعة الحلوى. كان يمزح معى - ولكنى تألمت جدًا لهذه الملاحظة، فلابد أنها كانت صحيحة إلى حد ما. والآن أسأل نفسى: هل هناك حد فاصل بين الزهد والأنانية؟

كان حصولى على الابتدائية فى سن العاشرة إيذانًا بأن ثمة تغييرًا قريبًا يجب أن يحدث فى حياتنا. فلكى أذهب إلى المدرسة الثانوية فى شبين يجب أن ينتقل البيت كله إلى شبين، لأن صغر سنى لا يسمح لى بأن أعيش فيها تلميذًا وحيدًا مغتربًا. ولكن شيئًا لم يكن منتظرًا ولا محسوبًا حسابه حدث قبل مغادرتنا أشمون.

كنا نتمشى فى شارع المحطة، عددًا من التلاميذ لا أذكرهم الآن، حين مال علىّ عبد المحسن نور وقال لى: هل عرفت أن أبى وأباك سيخرجان من عملهما؟

كان عبد المحسن يكبرنى بعام أو عامين، ولعله استطاع أن يشرح لى أن أبوينا قد كبرا فى السن، أو أن جمعية «المساعى المشكورة» تمر بأزمة مالية، ولذلك تستغنى عن بعض موظفيها. وكلا الأمرين كان صحيحًا. ولكن الخبر مع ذلك كان معناه مصيبة، تحل بكلا البيتين، فقد كان المعاش الشهرى فى تلك الأيام ميزة لا يتمتع بها إلا قسم صغير من موظفى الحكومة، وهم الموظفون المثبتون، أما غيرهم فلا يحصلون إلا على مكافأة هزيلة.

منذ تلك اللحظة شعرت أنى يجب أن أكبر بسرعة كى أستطيع أن أعول الأسرة بدلاً من أبى. وتركنا بيتنا فى أشمون كما هو، وذهبنا إلى الكفر وقد أصبح المستقبل غامضًا أمامنا. كانت أول عطلة أقضيها شبه كاملة فى الكفر، فيما عدا أسبوعًا قضيناه فى القاهرة وأسبوعين أو ثلاثة بين طنطا والإسكندرية فى الصيف نفسه تم ارتباطى بأطراف العائلة هنا وهناك، وعرفت ماضيها المشوق، بينما تأكدت عزلتى حتى عن هؤلاء الذين أنتمى إليهم. كنت أفكر فى مستقبلى. فلم يكن فى استطاعتى. أن أعتمد على أحد.. أبى خرج من عمله، ولم يكن أمامه عمل آخر، بل لعله لم يكن يفكر فى عمل آخر، إلا أنه واصل فى هذا الصيف ملحمته الخالدة، ملحمة غزو البركة. هذه قطعة من تاريخنا يجب أن تذكر. كان أبى أكبر إخوته الذكور فبعثه أبوه إلى الأزهر، بينما بقى أخواه فى الغيط، مع الجيل الأكبر، أى جدى وأخيه، أو ابن عمه فى الحقيقة فقد كانا مشتركين فى عيشه واحدة، بيت وغيط واحد، وكان فى الكفر عيادون آخرون إلا أنهم لم يكونوا على وفاق، عرفت ذلك فيما بعد حين رجع أبى ذات مرة من الكفر - وقد أصبحنا نسكن شبين - فى حالة سيئة أفضت إلى إحدى أزماته القلبية؛ لأنه دخل فى مشاجرة كلامية حادة مع أحد العيادين الآخرين. ولم يكن أبى بهيبته المستمدة من مجاورته فى الأزهر متعودًا على مثل هذه المشاجرات.

ما علاقة هذا كله بملحمة غزو البركة؟؟ علاقة عميقة جدًا. فابن عم جدى لم يرض أن يصرف على أبى، أو - على الأصح - أن يخسر يدًا عاملة أخرى، فما أظن أن التعليم فى الأزهر كان يكلف كثيرًا، إلا إذا أراد المجاور أن يرفه عن نفسه بشىء، غير الجراية وغير السكنى فى بيوت المجاورين. ولكن الحسبة كانت معقدة فى الحقيقة: فجدى كان له ثلاثة أولاد، يسهم باثنين منهم فى عمل الحقل، وابن عمه كان له ولدان فقط، فالولد الثالث. إذن وهو أبى - بكر جدى - يجب أن يبقى خارج الحسبة. ولكن طلك - فيما يبدو - لم يرض ابن عم جدى، ومن هنا نبتت فكرة زواجه المبكر، حتى تضاف يد عاملة أخرى إلى الأسرة. هكذا تم زواج أبى الأول، وقد أثمر ثلاثة من الذكور وأربعًا من الإناث. سبعة أفواه بالتأكيد لم تأت كلها دفعة واحدة، ولكن المعضلة كانت تتفاقم مرة بعد مرة، حتى اضطر أبى إلى

ترك الأزهر قبل أن يحصل على العالمية، واستطاع أن يعمل مدرسًا فى جمعية «المساعى المشكورة»، وكانت أول وظيفة تسلمها فى مدرسة نكلا، التى تسمى نكلا العنب، وقد ذكر لى أنه كان فى تلك الفترة يراسل جريدة المؤيد، وذلك حين أصبحت تلميذًا فى المدرسة الثانوية، وبدأت تراودنى أحلام الكتابة فى الصحف، ولمحت له ذات مرة بأنه لم يكن طموحًا بدرجة كافية، وأنه ـ لو أخذ رأيى ـ كان جديرًا بأن يصبح من الكتاب المرموقين.

بعدنا كثيرًا عن ملحمة غزو البركة. حسنًا، سأختصر، ولكن ليس من قبل أن أتحدث عن طموح أبى، وإلا فكيف كان يمكن أن يقدم على عمل هرقلى مثل غزو البركة؟

لقد اتجه طموح أبى نحو زيجة ثانية، زيجة يختارها على ذوقه هذه المرة. وكان يعرف أمى، فأبوها ـ جدى لأمى ـ ابن عمته، وقد رآها تشب من طفلة إلى فتاة ناهد، فلما بلغت السادسة عشرة، وكان هو يناهز الأربعين، طلبها من ابن العمة، فأعطاها ابن العمة لابن الخال. وقد سمعت تحاورهما حول موضوع زواجه الأول، والظاهر أن أمى، ر. غم فارق السن ـ، كانت تغار من زوجته الأولى، وكان أبى يزعم لها أنهم زوجوه دون أن يسألوه رأيه، فكانت تجيبة بأن الأبناء السبعة لم يأتوا من الهواء، فيضطر أن يعتذر بالغريزة البهيمية. لعل هذا واحد من الأسباب التى جعلتنى متحيزًا ضد هذه الغريزة، حتى أصبحت كما وصفنى بدر.

ها نحن قد وصلنا إلى أول الملحمة. عندما بلغت ثمار الزواج الأول خمسًا، وعزم أبى على الزواج الثانى، أصبح من الضرورى أن يخرج بأولاده من بيت العائلة. فاشترى ستة قراريط فى مدخل البلد، أمام الجامع، بينها وبين داير الناحية شارع صغير عريض بمقاس القرية المصرية. لم يكن لهذه القرايط الستة عيب إلا أن نصفها بركة، أو على الأصح جزء من بركة. وكان فى الكفر بركتان، أولاهما وكبراهما أمام دوار العمدة، ملاصقة لداير الناحية، ولكنها ـ رغم كبر مساحتها ـ لم تكن عميقة، فتم ردمها قبل بركتنا، وبما أنها أرض مشاع، فقد بنى فيها جامع، ودار للمناسبات مجاراة للتطور. ولكننى ـ حتى لا أقفز بك عشرات السنين ـ أعود إلى بركتنا. كانت هذه البركة أقل مساحة، وأشد عمقًا، ومع أن

ماءها الأخضر الراكد بيئة ممتازة للبعوض، فالظاهر أن أجسامنا كانت محصنة ضده، كما أن الوز من الدور المجاورة لم يجد بأسًا بالسباحة فيها. أما أنا فكانت تسليتى أن أقتلع بوصة من دغل على حافتها، لا أدرى هل نبت وحده أم زرعه أبى لمقاومة زحف البركة، وأجلس تحت ظل نخلة من النخلات الخمس المتناثرة فى الحوش، وكنت أسمع أنها جميعًا ذكور، فهى لا تثمر بلحًا، ولا نستفيد منها لا الجريد الذى يطلع منها كل سنة ويشتريه القفاص المجاور لنا بثمن بخس.

هناك فجوات فى تاريخ الأسرة المدون فى ذاكرتى. ومنها أنى لا أعرف متى انتقل أبى بأسرته أو بأسرتيه إلى هذا البيت، أو على الأصح متى بناه، متحديًا البركة، التى لم تكن خصمًا ضئيل الشأن، نظرًا لأن المدد يأتيها بصورة مستمرة من مجرور الجامع المجاور. ولكننى أستنتج أن ذلك إنما كان بعد الزيجة الثانية، ولاسيما أن الزوجتين أخذتا تتباريان فى الخلفة (دائمًا سيجد أبى عذرًا فديننا الحنيف يأمر بالعدل بين الزوجتين). كانت أمى تقول إن ولدها الأول فهمى الذى لم يأت إلا بعد ثلاث سنين من زواجها (أى حين بلغت سن التاسعة عشرة، وهو أمر طبيعى ولو أن الضرة لم تفهم ذلك) فهمى بكر أبنائها الذين ماتوا كان رفيقًا لعبد الوهاب. والغريب فى أمر أمى أن عبد الوهاب كانت له منزلة خاصة دون سائر أبناء ضرتها، وكأنها تعودت أن تنظر إليه منذ صغره على أنه بديل لفهمى. ولكننى عشت فى ذلك البيت مدة كافية لأن أصفه وصفًا دقيقًا وأتصور كيف كان يعج بالحياة حين بناه أبى. وأشهد لأبى أيضًا بأنه كان يملك موهبة لا بأس بها فى الهندسة المعمارية، إلى جانب موهبته فى الكتابة طبعًا. كان البيت قسمين وكان له بابان. القسم الأول ينحدر إليه القادم من الجامع، أى أنه بابه مواجه للحوش، باب خشبى ضخم، يكون - فى الغالب - مردودًا أو مواربًا، فإذا أقفل أمسكته إلى الحائط «ضبة» وهى أشبه بذراع خشبية متصلة بحبل فى الخارج من خلال ثقب فى الباب. فإذا كان الباب مغلقًا بالضبة فما على القادم إلا أن يشد الحبل فينفتح الباب. فى الليل طبعًا هناك ترباس حديدى ضخم. أمام الباب «وسط الدار» وفى مواجهته مباشرة، ولامؤاخذة «الكنيف» أى المرحاض، وهو لقضاء الحاجة فقط، لأن الاستحمام يتم فى القاعة، أما غسل الوجه والوضوء فأداتهما الإبريق

والطست. قرب الباب هناك الزير الذى اختفى الآن حتى من بيوت الفلاحين، وعاء فخارى كبير مهيب له نسب لا يمكن تفسيرها إلا بعلل جمالية، وإن كانت موظفة لغرض صحى أيضًا. فأعلاه أسطوانى الشكل، ثم يتسع فى الوسط ليتخذ شكل مخروط مقلوب، يرتفع فوق سطح الأرض بواسطة حمالة من الحديد، ويسقط من أسفله الماء قطرة قطرة، ليتجمع فى وعاء فيكون صالحًا للشرب.

ينفتح من وسط الدار، عن يمين الداخل أبواب ثلاثة: الباب الأول باب القاعة، أى حجرة الفرن، وهو سيد المكان. فأمامه مساحة صغيرة على مستوى سطح الأرض تجلس فيها ربة الدار حين تخبز، ولابد أن تتسع هذه المساحة، التى تسمى «البحراية» لمساعدتها أيضًا، وشلية العجين الخمران بجانب المساعدة، تقطع منها قطعًا متساوية تضعها على المطرحة - قرص من أعواد الجريد التى تثبت بعضها فى بعض، ولها مقبض تمسكه الخابزة وتقذف قرص العجين فى الهواء مرات منتظمة متتابعة وكأنها تهشك طفلاً، ثم تقذفه على «البلاطة»، وكانت قديمًا تصنع من الطين، وبتأثير التقدم التكنولوجى أصبحت تصنع من الصاج. ولابد أن تكون البلاطة قد وصلت إلى درجة كافية من الحرارة يمكن أن تختبرها الخابزة بأن تبل أصبعها بريقها وتضرب ضربة خفيفة على سطح البلاطة. وعليها بعد ذلك أن تراقب الأرغفة حتى تنضج، وعلامة النضج تختلف بحسب نوع الخبز، من البتاو إلى المقبب إلى المرحرح، إلى «العيش المصرى» الذى يصنع من دقيق القمح الخالص.

تمتلئ الخابزة ومساعدتها حماسة ويتورد وجهاهما أثناء هذه العملية فهمًا أول من يشم رائحة الخبز الطازج. هذا هو الشطر الممتع من عملية الخبيز، بعد أن امتلأت عيونهما بالدخان فى حمى الفرن، وهما تقذفان بأعواد الحطب التى كسر بعضها على بعض، وتزيدان نار «الشروقة» توهجًا بقطعة من أقراص «الجلة».

«الشروقة» هى حفرة النار فى عمق الفرن، قطعة من نار جهنم، لا عجب إذا تصورت المرأة أو الفتاة الصغيرة أن جنّيًا يمكن أن يخرج منها بالليل.

فى ليالى الشتاء، يرقد أهل البيت جميعًا رجالاً ونساءً وأطفالاً، على قبة الفرن، أى على تلك المساحة التى تمتد بطول الحجرة وعرضها، والغالب أنهم يتعشون فوقها أيضًا، بالخبز الذى لايزال محتفظًا بسخونته ولدونته، وثمرات القلقاس الكثيرة التى نضجت على الهينى فى تراب المحمى، وهرست بالزبد والفلفل والملح.

الباب الثانى باب «الزريبة» ظللنا نسميه كذلك ولو أننى لم أر قط بهيمة تدخل فيها أو تخرج منها. والظاهر أن أبى، ذلك الرجل الجبار، كان يزرع ذلك الفدان الذى ورثه من أبيه، والذى أضاف إليه ـ فيما بعد ـ نصف فدان آخر اشتراه فى كبره، ولعله كان السبب فى تلك المشاجرة التى حدثت، بعد سنين كثيرة، بينه وبين ذلك العيادى الآخر.

أما الحجرة الثالثة فكانت حجرة الخزين، وفى تلك الأيام كان القرويون يحرصون على أن يكون لديهم خزين السنة، من القمح إلى السمن إلى البصل والثوم. وحين سكنا ذلك البيت فى أثناء الحرب العالمية الثانية، أى بعد وفاة أبى بسنوات عدة، استخدمت أمى الزريبة وغرفة الخزين لتربية الأرانب، وكان لها نظام فى تربيتها، تفصل الأجيال بعضها عن بعض، وكل جيل له معاملة خاصة. وكنا نأكل من هذه الأرانب يوميًا دون أن نتكلف لها شيئًا تقريبًا.

أما القسم الثانى من البيت فيصله بهذا القسم باب المندرة الكبرى، وهو فى الغالب مغلق، ولها باب آخر على بعد خطوات ثلاث أو أربع من الطريق المؤدى إلى الجامع، وبينها وبين المندرة الصغرى باب ثالث. ولهذه المندرة الصغرى نافذة على الطريق نفسه، وإلى هذه المندرة الصغرى انتقلت الكنبات الثلاث الأشمونيات، وفيها كنت أقضى معظم وقتى، وكان المارون بالنهار أو الليل من أقاربنا يدقون على النافذة ويدخلون ليتحدثوا معى إذا حلا لهم ذلك.

وأغلب بيوت الفلاحين من طبقة واحدة، ولكن أبى لم يكن فلاحًا، فجعل لبيته طابقًا ثانيًا، نصعد إليه بسلم مجاور للكنيف، فنجد سطحًا واسعًا بمساحة البيت، فى ركن من أركانه «الكانون» الذى نطبخ عليه: جملة قوالب من الطوب تكون

أضلاعًا ثلاثة» الأثافى التى يتحدثون عنها فى الشعر القديم: يدسَ بينها الحطب ويوضع فوقها الوعاء. ودمتم بخير.

كان السطح مسورًا ـ بطبيعة الحال ـ، ولكنه كان «يلبَ» كما مشيت عليه، فقد كانت السقوف كلها من البوص. وأول ما نظمت من الشعر كان فى واحد من «المقاعد» ـ أى الغرف العلوية ـ الثلاثة التى كانت تشغل الجانب القبلى من البيت، فوق القاعة والزريبة وغرفة الخزين.

لا لم أنس ملحمة غزو البركة. يقال إن حرب طروادة استمرت عشر سنين، أما حرب البركة فقد استمرت أكثر من ذلك. فلا شك أن الانتقال إلى بيت البركة قد تم قبل أن أولد بسنوات، وفى السنة التى بدأت أتحدث عنها، تلك السنة الحاسمة فى حياتى بعد حصولى على الابتدائية وفصل أبى من عمله فى السنة نفسها، شهدت فصلاً أخيرًا فى الملحمة، وكنت قد أكملت عشر سنين من عمرى. وكانت أمى تقول كلما ذهبنا إلى البلد، أو ذكر بيت البلد، أو ذكر بيت البلد، إن أبى أضاع ماله فى البركة. هكذا النساء دائمًا. لا يفهمن الصراع ضد قوى الطبيعة، ولا لذة ذلك الصراع. الصراع الوحيد الذى يعرفنه هو صراع الرجل والمرأة فى الفراش. هذا شىء لم أفهمه إلا بعد أن كبرت. ولكن المؤلم أن ملحمة غزو البركة لم تحسم فى تلك السنة، ولأمر ما أصبح أبى يكره أن نذهب إلى الكفر فى إجازة الصيف، كنا نذهب إلى أشمون حيث بيتنا الآخر، وأصدقاؤه القدامى. وكأنما نفض يده من مشروع غزو البركة. ومات أبى، ومرت على موته سنوات، ورجعنا إلى الكفر؛ حيث أقمن اسنتين بعد حصولى على الليسانس، وكانت البركة قائمة، وذات ليلة ـ وكنت أمر بحالة من الاكتئاب الشديد ـ حلمت أنى أرى سرب نساء يحملن جرارًا وهن قادمات من البركة، فصحت بهن: ما هذا الماء القذر الذى تحملنه؟ فقلن: ليس هذا ماء. إنه دم.

لم أشهد إلا أطرافًا من صراع أبى مع البركة، حتى خلال الفترة التى وعيت فيها ذلك الصراع. فقد كان يقضى عطلة الصيف كلها فى الكفر، مشغولاً

بمعركته، بينما يترك أمى تطوف بنا، أنا وأختى، على بيوت أقاربها، وهى عادة سخيفة لم تقلع عنها حتى بعد أن شاخت وكبرت أنا، ورفضت مصاحبتها، ولكنها أصبحت تكتفى بأيام عند الخال أو الخالة أو بنت العم، بعد أن كنا نمضى فى هذه الرحلات أسابيع.

أذكر حديثًا دار بين أبى وأمى على أثر عودتنا من إحدى هذه الرحلات، ويخيل إلىَّ أن أبى كان يتعمد أن أسمع هذا الحديث وأمثاله، حتى أفهم أمورًا لم يكن من السهل أن يشرحها لى بطريقة مباشرة.

كان فى الكفر فتى صغير السن، يحمل مشنة العنب، أو الليمون، ويجلس بها على جانب الطريق، أو يتنقل بين البيوت، كما تفعل النساء. كنت أشعر أنه لا يشبه الرجال، وأنه لن يصبح رجلاً أبدًا، مهما كبر فى السن. قال أبى لأمى بعد عودتنا من السفر:

- الولد... جاءنى يومًا، لم أرد أن أكسفه. اشتريت منه رطل عنب، ولكنه لم ينصرف، بل سألنى: هل تريد شيئًا آخر؟

رفعت أمى حاجبيها مستفهمة، فقال أبى شارحًا: لابد أنه قال لنفسه: الرجل وحيد، امرأته مسافرة، ولم يتعود ذلك.

فهمت معنى الحديث، ولكن الذى أدهشنى هو أن يعرض الفتى نفسه على رجل مثل أبى.

صيفيات الكفر تختلط فى ذهنى، لا يمكننى أن أرتبها زمنيًا، ليت لها علامات كسنوات المدرسة، التى يمكنك أن ترتب البعض منها تبعًا لأشخاص المدرسين، أو لأى علامة أخرى متغيرة. أشمون أيضًا يمكننى أن أرتب بعض حوادثها بالبيوت الثلاثة أو الأربعة التى سكنا فيها، أما الكفر فلا يتغير فيه شىء إلا أننا نكبر، ونحن فى الطفولة أيضًا لا نشعر أننا كبرنا سنة بعد سنة حتى ندرك. الكفر كان يجمعنى فى اللعب برشاد الذى هو خالى، وسرور الذى أنا خاله، وثلاثتنا ولدنا فى سنة واحدة.

وكانت معركة البركة تستأنف سنة بعد سنة، وتتخللها سفرياتنا فى صحبة أمى ولها أيضًا نظام لا يختل. أسبوع أو عشرة أيام على الأكثر فى القاهرة، يومان منها فى بيت أخيها الذى لم تكن تحب امرأته، والباقى فى بيت عمها الذى تربت فيه مع ابنتيه بعد أن فقدنا أمَّهما. كنت أنادى كبراهما «خالتى منيرة»، مثل «خالتى أم محمد» التى فى طنطا، أما الصغرى فكنت أناديها «أبلا بطة» كما كان يناديها إخوتها من أبيها، فقد تزوج بعد وفاة أمهما قريبة لنا أيضًا تصغره كثيرًا فى السن، وأظنها كانت بنت عمه، أو بنت ابن عمه، مثل حكاية أبى فى زواج أمى، ولو أن أبى لم ينتظر حتى وفاة زوجته الأولى. كانت أمى تحفظ فلكلور أسرتها وترويه لى مرة بعد مرة، أما فلكلور أسرة أبى فلم تكن تحدثنى إلا بأطراف منه، مثل أن أخى عبد الوهاب حين كان ابن سنتين أو ثلاث دفع صبيًا من سنه فأوقعه على الأرض، فقالت له أم الصبى: «ما أنت من العيلة القوية». سرنى أن أكون أنا أيضًا من العيلة القوية ولو أن ثلاثة قبلى هربوا سريعًا من الصراع المصرى الأبدى ضد الجهل والفقر والمرض. وأنا - شخصيًا - لم أستخدم قوتى البدنية قط ولكنى جربت صفعة من أبى طرحتنى على الأرض.

عمها الذى لم يكن يزور الكفر أبدًا ولا عرف أولاده الكفر إلا حين هاجروا إليه أثناء الحرب العالمية الثانية، كان هو الأفندى الثانى فى الأسرتين معًا، أى أسرة أبى وأسرة أمى المتشابكتين. أما الشخص الذى سبقه إلى رتبة الأفندية فكانت أمى تسميه «جدى داود»، ولا أعرف هل كان شقيقًا لجدها محمد أم ابن عم له، مثل جدى لأبى «سيد أحمد» وأخيه منصور. كان طريق جدها داود إلى الأفندية هو الجيش، وهو والد الزوجة الثانية لعمها، ووالد شخص آخر كان يقول لوالدى «يا ابن خالى» وكان هذا يحمل لقب «بك» رسمى إذ كان برتبة «قائم مقام»، وكان مديرًا لمرور المنوفية، سأعرفه عندما ننتقل إلى شبين، سأجده جارًا لنا، ولكنه يسكن على الجانب الشرقى من شارع البحر، بين هذا الشارع وبحر شبين، حيث منازل علية القوم، بينما نسكن نحن فى شقة حقيرة فى حارة حقيرة على الجانب الآخر من الشارع حيث يسكن سفلة القوم.

أما العم الذى كانت أمى تقول إنها تربت فى بيته، فلا شك أنه دخل دواوين الحكومة من باب حسن الخط، الخط بالطاء أو بالظاء، سيان، فلم يرد فى تاريخ الأسرة أنه حصل على شهادة يومًا.

كنت أثناء تلك الزيارات أشعر بأنى غريب، وإذا ذكرت بيتًا فى القاهرة بشىء من الارتياح فهو بيت أخى الذى قضيت فيه أياما عندما كسرت ذراعى، وكنت أنادى زوجة أبى الأولى «خالتى بحر» وأحسبها مثل خالاتى الأخريات.

كان بيت خالتى فى طنطا أحسن كثيرًا. أبناؤها كثيرون بين أولاد وبنات، فى سنى أو أكبر قليلاً أو أصغر قليلاً، ألعب مع أترابى منهم وأراقب الآخرين فى خروجهم ودخولهم ومعاركهم بعضهم مع بعض أحيانًا. كانت عيشتهم مثل عيشتنا، وزوج خالتى هرب من الجندية بأن حفظ القرآن على يد جدى لأمى، ثم هرب من الفلاحة بأن أصبح عاملاً فى السكة الحديد، وحين كنا نزورهم كان قد وصل إلى مرتبة سائق لقطارات البضاعة، وكان يغيب عن البيت باليومين والثلاثة.

إذا وجدت هذه الذكريات لا تترابط، فأرجوا ألا تهتم. فأنا من جيل وسط، الجيل الذى ضيّع أنساب قومه، رغم أن الجيل السابق لم يقصر فى تلقيننا إياها. وأنا ـ شخصيًا ـ كنت أضيق بها ضيقًا شديدًا، لأنى كنت أكره غرور أمى، وكلما أو غلت معى فى تاريخ أسرتها شعرت أنهم ناس بلا صفة ولا انتماء، فجدها داود هذا الذى أصبح ابنه بيكًا، قد باع أرضه منذ زمن لم تعد هى نفسها تذكره. أما جدها هى فقد ترك ثلاثة أبناء: «رفاعى» هذا الذى كنا نزور بيته، ووالد أمى «شلبى» الذى فتح كتابًا، تحرص أمى فى فخرها بأمجاد الأسرة على أن مفتش الوزارة اختاره دون الكتاتيب كلها ليصبح مدرسة أولية معتمدة، والثالث جدى «محمد» الذى لم أره قط يزاول عملاً ما، ولكن كان لديه كنز لا يفرغ من الحكايات. جدها ترك هؤلاء الأبناء الثلاثة بدون أرض، بعد أن عاش هو نفسه عيشة العز والأبهة، بدليل أنه زوَّج ابنتيه ـ عمتَّى أمى ـ فى أسرتين ميسورتين إحداهما فى الكفر، والثانية فى شنوان.

دليل آخر على عزه وعنطزته فى ذلك الزمن الذى كان مياسير الناس يتمنون فيه من الله حجة قبل أن يموتوا: كان هو يحج كل سنة، يبيع لكل حجة فدانًا. ولما

كانت رحلة الحج شاقة وطويلة فقد اشترى عبدًا ليقوم على خدمته وحراسته. تفاءل به وسماه مسعودًا ودعاه ابنه، وحين سأله أن يزوجه «ستة» خضرة وهى الابنة الثالثة تردد الرجل قليلاً فى أول الأمر ولكن مسعودًا مرض وأشرف على الهلاك فأعتقه سيده وزوجه بخضرة. فأصبح فى أسرة أمى فرع مخلَّط. وبما أن هذا الفرع أيضًا جاء إلى الدنيا بلا أرض فقد نزح الابن الأكبر «أبو زيد» إلى القاهرة؛ حيث تعلم قيادة السيارات كما تعلم السكر، أما الابن الثانى «رزق» فكان لابد له أن يعتمد على ذراعه، وأصبح من أبناء الليل المرهوبين، وقد أدركته بعد أن كبر وتاب وأصبح يفلح الأرض بالإيجار، ولكن أمجاده السابقة وكبرياءه الفطرية منعته أن يتحول إلى أجير كالمئات من أمثاله فى الكفر. وكان ابنه عبد السلام يساعده فى الزراعة، وبعد أن مات أبوه رحل إلى شمال الدلتا؛ حيث كانت الحكومة توزع بعض الأراضى المستصلحة على الفلاحين المعدمين.

استطاع جدى لأمى أن يعلم أكبر أولاده. الأول محمود حصل على دبلوم المعلمين الأولية، وأصبح معلمًا، ثم ناظرًا فى المدارس الأولية، هذا الذى كان يقيم فى القاهرة وكانت أمى تكره زوجته. والثانى محمد حصل على الابتدائية وعمل محصلاً فى بلدية الإسكندرية، وقبل أن يخرج إلى المعاش رقى إلى ناظر ملجأ، وعاش فى بحبوحة كأى ناظر ملجأ، أما فى هذه السنة بالذات، سنة حصولى على الابتدائية، فكان لايزال محصلاً، وقد اتفقت الأختان على أن «تصيفًا» عنده فى وقت واحد، وسأعرفك فيما بعد كيف استمتعنا بهذه التصييفة. ولكن لا يزال هناك ثلاثة من أشقاء أمى، أرجو أن يكتمل بذكرهم فلكلور العائلة.

ولكن لماذا؟ كل أسرة مثل أسرتى لها مثل هذا الفلكلور. إذن فلماذا أكتب؟ لابد أنى أكتب لناس آخرين. هل أتطلع ـ مثلاً ـ لعلماء الأنثروبولوجيا؟ ولكننى زعمت لك أنى أتحدث إليك لكى أحدث نفسى، أريد أن أتخفف من عبء، ألا لا يجيئنى زائر الفجر وأنا مثقل، أن أتكلم بدون صناعة، بدون فن، أن أصل إلى عقلك وقلبك دون واسطة، أخشى أن أكون قد نجحت فقط فى إملالك، فماذا أفعل وليس عندى ـ حقيقة ـ إلا هذا، هذا أعز ما عندى، ما يخصنى أنا، ليس عندى

بعد هذا إلا بضعة كتب، لتكن خزائن كتب، فما تعنيه لى حقًا هو جد قليل، وسأحدثك بهذا القليل الذى تعنيه لى أيضًا إذا جاءت مناسبة لذلك.

من أين تأتى هذه الرغبة الملحة فى تواصل حميم؟ هل من انطوائيتى الأصيلة؟ تلمع فى خاطرى، وأنا أحدثك الآن، فكرة لا أدرى ما حظها من الحقيقة: معظم ما كتبته حتى الآن يدور حول موضوع واحد: عدم القدرة على التواصل. هل ترانى أرمى بآخر ما فى جعبتى الآن، أحاول محاول أخيرة؟ وهل يمكن أن تقبلنى أنت؟ أليس هذا «الفعل الكتابى» شبيهًا بالفعل الفاضح الذى أكاد أهم به، وأمسك يدى عنه فى آخر لحظة؟ «مكبوت جدًا». عندما كبرت قليلاً، (سأعود إلى الكلام عن سن العاشرة وتلك الصيفية الطويلة فى الكفر) أصبح أبى يصفنى بأننى «برّاوى». أنا لم أكن طفلاً «براويا» عندما ركبنا معًا ـ هو وأنا ـ فى سيارة «المستر جريفث» مفتش اللغة الإنجليزية لنحصل على رحلة مجانية من أشمون إلى الكفر. وجاوبت الرجل بكل ما أملك من طلاقة حين سألنى عن اسمى واسم أبى.. إلخ كان أبى فخورًا بى. ولكنى حين أصبحت «برّاويًا» لم أعد أعجبه. رجل عامىّ فهمنى أحسن منه. كنت راجعًا إلى البيت، فى أشمون، وكان هو جالسًا مع جار لنا مقارب له فى السن، أظنه كان منجدًا أو خياطًا أو شيئًا من هذا القبيل، ولكنه انقطع عن العمل لتعب عينيه، فكان يقضى أكثر وقته جالسًا هكذا على باب داره. نادانى أبى دون سبب ظاهر، ولكنه كان يبتسم، ودعا لى الجار دعوتين صالحتين، فعلّق أبى «ولكنه برّاوى» فسمعت من هذا الرجل الأمى كلمات مازلت أحفظها، لأنها أعطتنى شيئًا من الثقة فى نفسى، وهو أشد ما كنت أحتاج إليه ـ وقتها وحتى الآن ـ لأواصل مسيرة الحياة الصعبة: «اتركه. فى رأسه شىء، وإذا تكلم مع هذا وهذا نسى ما فى رأسه».

لم ننته بعد من فلكلور أسرة أمى. لقد بقى من إخوتها الأشقاء ثلاثة. أولاهم «منى» كانت تصغر أمى بسنة أو سنتين. كانت أمى حين تسرح غزالتها مع أختها الكبرى (خالتى أم محمد) تترحمان عليها وتتحسران على شبابها وجمالها. ولعلى سألت عن قصتها مرة، ولعلى ألححت فى السؤال حتى عرفت أنها لم تمت ميتة طبيعية. لقد حرقت نفسها وأخفت الأسرة هذا السر إذ لم يكن من المناسب أن بنت الرجل الذى يحفظ أولاد الناس القرآن تموت كافرة. كم تحمّل «وابور الجاز» من تهم لمجرد أنه أداة طيعة فى يد فتاة أو امرأة يئست من الدنيا. ومشكلة منى - كما زعمت أمى وخالتى والله أعلم بالأسرار - أن أباها أراد أن يزوجها رغم أنفها. كان الزوج الذى تقدم لها فلاحًا، وهى كانت تريد أفنديًا. هل كان هناك أفندى معين أم إن المسألة لم تخرج عن الميل المتوارث فى أسرتها للنفخة الكذابة؟ مرة أخرى: الله أعلم بالأسرار.

وبقى أخ وأخت بعد أن اشتغل الابنان الكبيران وتزوجت البنتان الكبريان، وكان من سوء حظ هذين الشقيقين المتأخرين أن أمهما ماتت وهما صغيران، فعاشا مدة مع زوجة الأب، الولد حفظ القرآن وعمل عريفًا فى كتاب أبيه، والبنت تساعد زوجة أبيها فى الدار وتتحمل من قرصها وزغدها ما كانت ترويه لأمى. وتفخر أمى العنيدة المتكبرة بأنها خاصمت أباها ثلاث سنين، لا تكلمه ولا يكلمها، وهما يعيشان فى قرية واحدة، لأنه غير قادر على حكم زوجته التى صفتها ونعتها، وكان الحل هو إرسال الشقيقين المتأخرين إلى الكبيرين. أما البنت

فذهبت إلى أخيها محمود فى القاهرة، ولا يلبث أن يزوجها من زميل له كانت زوجته الأولى قد قطعت الخلف بعد أن أعطته بنتين. كان الشرط أن تعيش الضرتان فى منزل واحد، واحترمت الكبرى نفسها فلما ولدت خالتى ذكرًا ـ الأول فى سلسلة طويلة، سوف تخلد اسم الأب وتنشره من السعودية إلى ألمانيا ـ حملته وأنزلته من عبّها دلالة على أنه سيكون فى محبتها له مثل ابن بطنها. هذا إلى جانب الهيبة التى كان يتمتع به الأفندى ضمانًا لاستقرار الأمن فى البيت المزدوج رغم بعض الأزمات العارضة. أما الولد فقد أرسل إلى أخيه محمد فى الإسكندرية، وهناك ألحقه شقيقه بدكان مكوجى، وظلت هذه المسألة تحز فى الشقيق الأصغر نفسه سنين طويلة، ولا أدرى لماذا فعل خالى محمد هذه الفعلة. هل كان شقيقه قد تجاوز السن التى يمكن إلحاقه فيها بالمعهد الدينى؟ ولكنه كان يستطيع أن يتدارك ذلك، لو إنه استقدمه بنفسه فى الوقت المناسب.

أنت ترانى أتبنى قضية هذا الخال الأخير الذى كان يكبرنى ببضع عشرة سنة، ولا شك أن أمى هى التى حكمت علىّ بذلك. كان اسمه عبد الفتاح والظاهر أنها كانت تعزه كثيرًا فسمت ثالث أولادها الذين ماتوا عبد الفتاح. وورثت أنا هذا الاسم من الولد الميت. لم أكن أعرف قوة الأسماء حتى وقت قريب جدًا. نعم، قرأت فى «الغصن الذهبى» أن الاسم عند الشعوب البدائية له علاقة غامضة بالروح، ولذلك تمكن السيطرة على الشخص من خلال السيطرة على الاسم. وأعرف أيضًا من الفلكلور المصرى أنك يمكنك أن تصنع حجابًا أو تعمل عملاً لشخص ما إذا عرفت اسم أمه، ولكننى لضعفى فى الأنثروبولوجيا لم أكن أعرف أن للأسماء قيمتها حتى فى عصرنا هذا. حتى نبهنى إلى ذلك كتاب ألفه زوجان أمريكيان، موضوعه قوة الأسماء، الزوجة ـ تطبيقًا للنظرية ـ لم تستخدم اسم زوجها بجانب اسمها على عنوان الكتاب، حسب العادة الأوروبية. (يجب أن تقدر نساؤنا التقدميات هذا الامتياز الذى جاءهن بدون مجهود). ومن الشواهد المقنعة التى جاءت فى هذا الكتاب أن ملاك العبيد فى أمريكا كانوا يعطون العبد اسمًا جديدًا، فبهذا يثبت أنه انتقل، شكلاً وموضوعًا، جسمًا وروحًا، إلى ملك سيده الأبيض. أصبحت الآن أشك شكًا قويًا فى أنى مصاب بازدواج الشخصية، ربما

كان نوعًا خفيفًا منه (هل يصلح اسم الكبت؟) منذ سمتنى أمى عبد الفتاح شكرى. فعبد الفتاح يتنازعه شخصان: شخص ميت لا أعرفه، وربما كان له تأثير علىَّ يشبه تأثير المالك، لولا اسم شكرى الذى يدفع عبد الفتاح بعيدًا رغم أنه موجود فى جميع الأوراق الرسمية (هل لهذا علاقة أيضًا بنزعاتى الفوضوية؟) ولكن المعركة لا تزال قائمة ولا أظنها حلّت بموت خالى عبد الفتاح قبل أكثر من عشر سنوات، فقد ظل إلى أن مات يذكرنى بأنى سميت باسمه (أى أنه يملكنى حسب نظرية الزوجين الأمريكيين).

عندما ذهبنا إلى الإسكندرية فى رحلة الصيف التى سأتحدث عنها فيما بعد بشىء من التفصيل كان خالى عبد الفتاح لايزال يعمل مكوجيًا، ولكنه كان يعبر عن رفضه لهذه المهنة بطول فترات التعطل (وكنا فى بداية الأزمة الاقتصادية العالمية - سنة ١٩٣١ - لا يحتاج الإنسان إلى مجهود كبير ليبقى متعطلاً) وهوى الموسيقى فكانت عنده هارمونيكا لم يلبث أن باعها، وكان فى الوقت نفسه ملتحقًا بمدرسة ليلية لتعليم الفرنسية ولم يصبر عليها طويلاً. وقد بدأ ينظم الزجل وأجلسنى مرة بين زملائه الزجالين، وليثت نبوغى المبكر طلب منى أن أقرأ زجلاً منشورًا فى مجلة، فخيبت ظنه بتعثرى المستمر فى الكلمات لأنى لم أتعلم فى المدرسة قراءة الأزجال العامية. سيذهب بعد ذلك بقليل إلى القاهرة ويصبح محررًا ثابتًا فى مجلة «المطرقة» التى كانت وفدية سليطة اللسان، وسيرسل إلىّ أعدادها بانتظام على المدرسة الثانوية، وسأصبح ماهرًا فى قراءة الأزجال، ولكن الناظر يستدعينى - وأنا صبى فى الحادية عشرة - ويطلب منى أن أمتنع عن الاشتغال بالسياسة، فأكتب إلى خالى كى يمتنع عن إرسال المجلة إلىّ مؤكدًا له أنى سأواظب على قراءتها، وأن قرش تعريفة كل أسبوع ليس بالشىء الكثير على مجلة تنشر أزجاله.

ولكن أزماته المالية كانت جزءًا من روتين حياته. أحيانًا كان يطبّ علينا فى شبين لكوم، ولعله كان يجد صعوبة فى الاقتراض من أمى، أو يأخذ منها كل ما يمكنه أخذه، فيستخدم سلطانه علىّ وأعطيه كل ما معى، ولم يكن يتجاوز فى العادة عشرة قروش. ولكنه رد إلىّ ديونه أضعافًا كثيرة حين كبرت قليلاً وأصبحت

أقدر جمال الجسد الأنثوى، فكان يأتينى بتذكرة مجانية لصالة بديعة أو صالة ببا، وحين كبرت أكثر أخذنى إلى غرز الحشيش التى كانت تضم أحيانًا بعض الفنانين وأحيانًا بعض المدرسين الإلزاميين.

فى أثناء الحرب العالمية الثانية ضاق مجال العمل فى الصحافة.فهاجر عبدالفتاح شلبى فترة إلى الحجاز، وكان «رائدًا» فى هجرة الصحفيين المصريين نحو المشرق، ولكن ذلك كان قبل انهمار الثروة النفطية، فلم يطل به المقام هناك، واشتغل بعد عودته بتأليف الأغانى. كابتن أشهر الأغانى التى كتبها لبديعة صادق: «أحب نجومك يا كابتن، أحب هدومك يا كابتن آه يا كابتن... إلخ «وأغنية أخرى» يا معلم قلبى الحنية، يا معلم روحى بتتكلم، بتقول لك ما تحن عليه، آه يا معلم يا معلم». لم يكن ذلك انحدارًا لزجال المطرقة، ولكن المحزن أن تغنيه مغنية عظيمة مثل بديعة صادق، التى لم تجد مجالاً للعمل فى غير الصالات، وكان أهم زبائنها من «المعلمين» الذين اشتغلوا مع الجيش الإنجليزى، كما كانت هناك موجة من الحماسة الوطنية للجيش المصرى، الذى ارتفع عدده طبقًا لمعاهدة ٣٦، وفى خلال بضع سنوات فقط، من ١٦ ألفًا إلى ١٠٠ ألف، وكان الكباتن الشبان الذين تخرجوا فى كلية الحربية بعد ثمانية عشر شهرًا ليخدموا فى مؤخرة الجبهة، يمتعون أنفسهم بالتردد على الملاهى الليلية. هذه هى الفترة التى عملت فيها بعض القوى جاهدة لتحويل المشاعر الوطنية من الوفد إلى الملك، فكان للتوأمين مصطفى وعلى أمين وصحيفتهما الناشئة «أخبار اليوم» دور مهم فى ذلك. قد تكون لنا عودة إلى هذه القصص، وتحول مركز الحياة السياسية المصرية إلى الجيش. قد تكون لنا عودة إلى ذلك، ولكننا الآن فى حديث الصالات والأغانى والصحافة وكلها شغلت فترة مهمة من حياة خالى عبد الفتاح قبل الانقلاب الأخير والعجيب الذى حدث له.

كان عبد الفتاح شلبى من أوائل الزجالين الذين ألفوا الكلمات المناسبة لشخصية شكوكو بطرطوره وعصاه، كما كانت «أخبار اليوم» صاحبة الدور الأكبر فى الدعاية له، ضمن معركتها ضد الوفد (اضحك!) من أوائل الأغانى المشهورة التى ألفها عبد الفتاح شلبى لشكوكو: «حدرجة بدرجة من كل عين زرجة» و «من

تحت لفوق من فوق لتحت» أما أشهر أغنية «حمودة يانى» التى يقول فيها شكوكو «ادينى بوسة أنا قد أبوكى ناولينى ناولى ناولى يابنت الجيران. «ويقول قبلها أو بعدها على لسان المحبوبة ونغمات الموسيقى التى تناسب بير السلم: «حمودة يانى أنا سامعة صوت، حمودة يانى أنا خايفة موت» هذه الأغنية التى بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ الغناء المصرى، ولم يلتفت إليها جاك بيرك فى دراسته الأنثروبولوجية العميقة حول هذا الموضوع - هذه الأغنية التاريخية لا يمكننى الجزم باسم مؤلفها، هل هو عبد الفتاح شلبى أو صديقه فتحى قورة؟ على كل حال لم يلبث فتحى قورة أن اكتسح السوق، ولم يبق لعبد الفتاح شلبى إلا محمد طه وأبو دراع.

ثم حدث الانقلاب الكبير والخطير فى حياة عبد الفتاح شلبى، فقبل وفاته بسنوات قليلة أعلن نفسه شيخ طريقة، وزعم لمريديه أنه تلقى العهد من أبيه الذى كان قد انتقل إلى جوار الله منذ أكثر من عشرين سنة، ولم أسمع قط فى تاريخ الأسرة أنه كان شيخ طريقة، إنما كان شيخ كتاب كما غرفتك، وكانت الصلة قد انقطعت أو كادت بينه وبين ولده عبد الفتاح منذ انتقل هذا الأخير إلى الإسكندرية. ولكن الشيخ عبد الفتاح أصبحت له خيمة تنصب فى مولد السيدة ومولد الحسين، وتؤكل بها الفتة واللحم ويقام أمامها الذكر. وفى هذه المرحلة الأخيرة نظم عبد الفتاح شلبى سيرة الرسول زجلاً، ثم صحا لنفسه فنظم «الميثاق»، وظفر بمعاش استثنائى نفع أولاده بعد وفاته.

أهم من كل هذا: أنى لم أسمع من عبد الفتاح شلبى كلمة واحدة ولا رأيت على وجهه أمارة واحدة تدل على الغل أو الحسد حين يذكر فتحى قورة، وبقيا صديقين إلى أن اختار الموت الأشهر منهما.

آن الأوان لذكر لمحة مختصرة عن تصييفة الإسكندرية. كان خالى المحصل يسكن فى شقة صغيرة فى الورديان، هل تعرف الورديان؟ وأنا حتى ذلك الوقت لم أكن أعرف الورديان، وأظن أننى فى هذه الزيارة الأولى للإسكندرية لم أعرف غيرها. الورديان هى آخر أحياء الإسكندرية من جهة الغرب، ليس بعدها إلا المكس. لعلك مررت بهما قادمًا من الطريق الصحراوى أما فى تلك السنة (١٩٣١)

فلم يكن هناك طريق صحراوى ولم يكن هناك كورنيش ولكن شقة خالى كانت تطل على البحر . هل مررت يومًا بجانب مدبغة للجلود؟ يمكنك إذن أن تتصور الرائحة الفظيعة التى كان يحملها إلينا نسيم البحر. وكانت الشقة مكونة من ثلاث غرف وصالة وبلكونة. غرفة مخصصة بالضرورة لخالى وزوجته، وغرفة ثانية لابن خالتى محمد، بكر أبناء خالتى أم محمد (وعلى فكرة كان اسمها أم محمد قبل أن تلد محمد). تبقى الغرفة الثالثة وهى ـ بالضرورة أيضًا ـ غرفة الاستقبال، وعلى أرضها، وعلى أرض الصالة والبلكونة نتكوم نحن الأطفال كبارًا وصغارًا بنين وبنات، أنا وأختاى وأبناء الخال وأبناء الخالة مع أمينا، ورغم صغر هذه المساحة فقد اتسعت لمشاجرة كلامية قصيرة بين أمى وخالتى، أما زوجة خالى فكانت سيدة هادئة الطبع، ولذلك كانت أمى تحبها على عكس زوجة خالى الآخر. ذات مساء جاءنا أحد الكبار بجريدة فيها أرقام جلوس الناجحين فى الشهادة الابتدائية، وكان فيها رقمى ورقم ابن خالتى توفيق، ذلك الذى حدثتك عنه من قبل، ولابد أن أعصاب الأختين ـ أمى وخالتى ـ كانت متوترة فى تلك الليلة، فهذه هى المرة الوحيدة التى رأيتهما تتشاجران فيها، ولا شك أيضًا أنهما وجدنا الفرصة سانحة للشجار فهما فى أرض محايدة، كلتاهما ضيفة، ولا يحتم عليها الواجب الملعون أن تبلع كلمة لأختها.

لا يوجد شىء آخر يمكننى أن أتذكره عن هذه التصييفة، سوى محاولاتى الفاشلة لقراءة الزجل، وكان مسرحها دكانًا ـ أو ربما قهوة ـ فى أسفل البيت. لا تتوهم أنى رأيت البحر عن قرب.

والحادث الوحيد المهم الذى وقع فى تلك الزيارة لم يكن نجاحى فى الابتدائية، فهذا لم يكن له أهمية فى ذاته، بل كان المهم هو ما سوف يترتب عليه. أما ذلك الحادث الآخر فقد كان مهمًا فى ذاته، لأنه أخرنى عن الانتظام فى الدراسة أسبوعين أو أكثر.

حتى لا نسبق الحوادث، يجب أن أعود بك إلى بيتنا فى الكفر، إلى ذلك المقعد الذى سألتقى فيه بربة الشعر بعد سنوات تسع. تدربت على الوحدة فى ذلك المقعد. لم تكن حالتنا سيئة جدًا. عندنا بيت فى أشمون، لم يعد له لزوم، لماذا لا

يبيعه أبى كما اشتراه. المشكلة هى أن الفلاح يجب أن يشترى ولا يجب أن يبيع. حتى فى الكلام، تعلمت من حكمة الفلاحين أنك يجب أن تشترى ولا تبيع، إن لم تكن فلاحًا فاعلم أن المقصود هو أن تحصل من محادثك على أكثر ما يمكنك الحصول عليه من معلومات، ولا تعطيه من جانبك معلومة واحدة. وأبى كان فلاحًا ولم يكن يفكر فى بيع ذلك البيت ولا أى قيراط من الفدان ونصف الفدان. ولكن هل من العدل أن يطلب مساعدة من أخوىّ غير الشقيقين، وكلاهما يحمل نصيبًا غير قليل من الحمل الذى يجب أن يتكفل به الوالد؟ وهناك مشكلة أخرى وعيتها جيدًا وهى أن أبى عندما اشترى ذلك البيت فى أشمون سجل عقد شرائه باسمى وأختىّ الصغيرتين. أى أنه حرم الدفعة الأولى. لامه عمى الشيخ نور على ذلك، وتوقع أن يغضب إخوتى، وأظنه رأى أيضًا أنه عما مكروه شرعًا، ولكن أبى رأى أن الصغار محتاجون إلى شىء يؤمن مستقبلهم. وكان واثقًا أن أبناءه سيقدرون ذلك. ليكن. ولكن لماذا لا يقدر أيضًا أنهم مثقلون بالأعباء حتى أنهم يؤجلون زواجهم، أملاً فى زواج البنتين أولاً، وخوفًا من مشكلات تجد مع أمهم ثانيًا؟ لم يكن من الغريب أن يسبقهم فى الزواج أصغرهم - عبد الوهاب - فهو يستطيع أن ينسل من هذه الأعباء لأنه الأصغر.

نعم قد يمكننا أن ندبر حياتنا بدون معونة من إخوتى. ولكن كيف يكون الحال إذا لم أحصل على المجانية فى مدرسة المساعى المشكورة الثانوية؟ هل نستطيع أن ندبر عشرين جنيهًا فى السنة؟ أبناء الفقراء يعرفون هذه الهموم جيدًا، يشتركون مع أهلهم فيها، ويخجلون إذا إذا كلفوهم ما لا يطيقون.

ولكننى عثرت على كنز فى ذلك المقعد. كان الكنز فى صندوق قديم من تلك الصناديق التى تحوى أمتعة العروس الخاصة حين تنتقل إلى بيت زوجها: قدمه وقدم محتوياته يرشحانه لعهد الزوجة الأولى. لم أكن فيه إلا أوراق. أول ما أثار استطلاعى منها خطابات متبادلة بين أبى وأخوىّ منذ كانا يتلقيان تعليمهما الثانوى فى طنطا، فلم يكن فى شبين مدرسة ثانوية. المسافة بين طنطا وكفر شنوان لا تعدو نصف ساعة بالسيارة، أو ساعة بالقطار القشاش، ولكن ركوب السيارة أو القطار، حتى بهذه المسافات القريبة، كان يعد سفرًا، ولعل الأخوين كانا

لا يحضران إلى البلد إلا فى الأعياد أو الإجازات. وتمتد المراسلات إلى القاهرة، وقد التحق الأكبر محمد بوظيفة كتابية إلى أن أتيحت له فرصة التعليم العالى فى القسم الليلى من مدرسة المعلمين العليا، عندما كان الأصغر محمود قد تخرج فى مدرسة الحقوق وعاد إلى طنطا ليعمل فى مكتب محام كبير اسمه عبدالرحمن البيلى، (وقد سمعت أن أول مرتب قبضه فى ذلك المكتب كان عشرة جنيهات). كان محمود مقلاً فى الكتابة على عكس محمد، وكلاهما كان يذيل خطابه قبل التوقيع بهذه العبارة: «ولدك البار المطيع». وكان أبى فى بعض خطاباته يوصيهما بى، إن هو مات وتركنى صغيرًا. أما أكثر ما كان يرد فى تلك الخطابات فأمور عملية كإرسال نقود أو أمتعة. ووجدت خطابًا من أحد زملاء أخى محمود حين كان طالبًا فى الحقوق وكان فيه كلام فى السياسة وتوقع من الزميل لأخى بأنه سيكون أول الفرقة. لعل الاطلاع على أمور تخصنى من قريب أو من بعيد كان أول ما شوقنى إلى التقليب فى محتويات الصندوق. وكان الكنز الحقيقى مجموعة متفرقة من أعداد مجلة الهلال فى سنواتها الأولى. حين حسبت التواريخ وجدت من المستحيل أن تكون من مقتنيات الأخوين. فى أواخر القرن الماضى أو أوائل هذا القرن كان أكبرهما بالكاد طفلاً. إذن فأبى، - المجاور -، كان يقتطع من قروشه المعدودة ليشترى هذه المجلة التى لا شأن لها بالأزهر ودروس الأزهر. صحيح أننى عثرت أيضًا على كتاب اسمه«المواهب الفتحية» لشيخ اسمه «حمزة فتح الله، فيه شعر قديم وتفاسير نحوية، ولكنه كان متأخرًا فى الزمن، كل هذا فقد فى وقت من الأوقات، لعله حين انقطعنا عن زيارة البلد سنة وراء سنة، أى دون نية ثابتة على تركها، فلم نعن بنقل ما هناك من أشياء نحرص عليها. ولكننى بدأت أعرف حقيقة أبى منذ ذلك الحين. ذلك الذى جعلنى أعرف منه، فيما بعد - أنه كان مراسلاً للمؤيد فى وقت من الأوقات. حسبت حسبة أخرى فسألته مرة: ماذا يذكر عن الثورة العرابية؟ قال إنه كان صبيًا دون العاشرة ولا يذكر عنها شيئًا. سألته عن ثورة ١٩، فقال إنهم قطعوا السكة الحديد وإنه حمل صفيحة جاز من منوف لأن شنوان والكفر لم يكن فيهما جاز. لم يحدثنى عن أى عمل بطولى قامت به صفيحة الجاز فاستنتجت أنها كانت للاستعمال المنزلى، ولكن

لماذا؟ كان الجاز ـ حتى على أيامى أنا ـ يستعمل لغرض أساسى واحد وهو الإضاءة. أما الذى أدهشنى حقًا فهو أنه سمى آخر صبى رزق به «أحمد لطفى»، وكنت قد وصلت إلى السنة الثانية الثانوية وقرأت بعض كتب طه حسين وقد أهدى أحدها إلى أستاذه أحمد لطفى السيد، وسألت أبى: لماذا سميته أحمد لطفى؟ فقال: على اسم أحمد لطفى السيد.

أعداد الهلال التى اشتراها الفتى المجاور بقروشه القليلة جعلتنى أسأل أبى، كلما واتتنى الشجاعة ورأيته فى حالة استرخاء، عن تلك التواريخ القديمة، فيجيبنى إجابات غامضة مختصرة. لم أعرف إلا بعد أن جاوزت عمر أبى حين مات، معنى أن يكون المرء مثاليًا محبطًا.

فى أعداد الهلال هذه قرأت سيرة كرومويل، وسيرة رضا بهلوى، كلاهما كان جنديًا وقاد ثورة وخلع ملكًا. أعجبتنى المسألة. بدأت أحلم. وكان من أحلامى أيضًا أن أصبح مخترعًا (لعلى قرأت سيرة أديسون) وجعلت أرسم عجلات وعربات. ولكن الذى أفادنى أكثر، وساعدنى على اختيار طريقى فى الحياة أكثر مما ساعدتنى المدرسة الابتدائية سابقًا والثانوية فيما بعد، كان كتابًا عنوانه «سر تقدم الإنجليز السكسون»، اسم مترجمه فتحى زغلول وهذا حده يجعله مألوفًا لأن كل الناس كانت تعرف اسم سعد زغلول. وكان المؤلف فرنسيًا اسمه ديمولان، ولابد أن هذا شوقنى لقراءته أيضًا، فكونك تتكلم عن مزايا ناس آخرين، بدلاً من الكلام عن أمجاد أسلافك الذين راح زمانهم من مئات السنين أو آلاف السنين (هذا شىء كنا نسمعه ونقرؤه منذ الطفولة) أمر يدل على أنك صادق ويدل فى الوقت نفسه على أنك تريد أن تكون أحسن مما أنت. لا تطلب منى الآن أن أحدثك عن كتاب قرأته قبل أكثر من ستين سنة ولم أعد إليه بعد ذلك ولا عرفت أين اختفى. ولكن شيئًا واحدًا ثبت فى ذهنى، اسمه «التربية الاستقلالية»، ومن ضمن معانيها أن يعتمد الإنسان على نفسه، وأن حشو العقل بالمعلومات ليس مهمًا ولكن المهم هو شىء اسمه «الشخصية»، أن يعرف الإنسان ماذا يريد ويبذل جهده لتحقيقه، أن يواجه العقبات ولا ييأس. كنت وأنا أجلس وحدى فى المقعد ـ صبيًا ابن عشر سنين ـ فقد السند (أو يخيل إليه ذلك)، لا يعرف ماذا يكون من

أمره بعد شهر أو شهرين ـ مستعداً لاكتشاف هذه الحقائق سواء كانت تخص الإنجليز السكسون أم العفاريت الزرق.

بعد شهرين فعلاً ـ كنت أمارس الاعتماد على الذات. جاء الفرج من الله، مدوا لأبى سنتين، ولكن بعد تخفيض مرتبه، وقبلت فى المدرسة الثانوية بالمجان، ولكنى كنت أمد يدى بكراسة ما إلى مدرس ما، فنظر إلىّ منزعجًا، وراح يتأمل ما بين أصابعى، وما لبث أن أرسلنى إلى طبيب المدرسة، وفى لحظات كانوا قد أرسلونى إلى البيت. فالذى رجعت به من الإسكندرية أو من طنطا ـ لا أدرى، فقد كانت طريقة الحياة والنوم واحدة ـ كان مرضًا جلديًا اسمه الجرب. نعم كنت أجرب مثل الكلب. وبقيت فى البيت أسبوعين. تسمطنى أمى كل ليلة بالماء الساخن ثم تدهننى بشىء ذى رائحة نفاذة اسمه كبريت الجمال. الجرب ورائحة كبريت الجمال كانا سببين كافيين لابتعاد الجميع عنى. تأكد ميلى إلى الوحدة وكانت لذتى الوحيدة هى فقع البثور التى تظهر على ذراعى. ولا أدرى كيف كان الوقت يمر طوال هذين الأسبوعين. كنت قد استلمت كتب المدرسة، ولكنى لا أتذكر أنى تشاغلت بها وفى تلك الأيام لم يكن هناك راديو ولا غيره. ربما كنت أقرأ بعض المجلات. أنا قارئ للمجلات منذ بدأت أفك الخط، البركة فى المجلات التى كان يأتى بها أخى محمود. أعرف ذلك لغلطة مضحكة ارتكبتها فى درس العربى وأنا فى الثانية، أو على الأكثر فى الثالثة الابتدائية. قرأ المدرس فى كتاب المطالعة: «انخلع فؤاده من الرعب» وسأل: ما معنى «فؤاده»؟ رفعت إصبعى متحمسًا، وقلت «طربوشه». وأدهشنى أنه لم يقبل هذا الجواب، فقد كنت أرى كثيرًا من الصور الكاريكاتيرية التى يرسمها سانتيس (رسام الكاريكاتير الوحيد فى تلك الأيام) يظهر فيها شخص ما فى حالة فزع، وطربوشه مرتفع على رأسه سنتيمترين أو ثلاثة.

لعلى لم أكن أحرم أحيانًا من قرش لأشترى به مجلة. ولكن عزلتى عن الأطفال الذين فى سنى، بعد تمريناتى السابقة فى مقعد البلد، علمتنى تسلية مازلت أمارسها حتى الآن خصوصًا فى الرحلات الطويلة أو الجلسات المملة، وهى السرحان، ويمكنك أن تفخمها فتسميها «الاستبطان» أو «التأمل فى الذات».

عندما عدت إلى المدرسة كان الفصل قد سبقنى بمسافة طويلة، قضيت أسبوعًا أو أسبوعين أنقل من كراسات زملائى الدروس التى فاتتنى. فى أول امتحان شهرى كان ترتيبى الخامس عشر من ثلاثين تلميذًا أو نحو ذلك، كان مهمًا جدًا أن أنجح فى آخر السنة لأنى إن لم أنجح سأفقد المجانية، ولكى أضمن النجاح كان علىّ أن أتجاوز منطقة الخطر حيث يكون الرسوب ممكنًا، لذلك كان ترتيبى آخر السنة الثامن. لا يهم ماذا تعلمت، المهم أنى كنت أحفظ بإتقان كاف للحصول على درجة معقولة، عالية إن أمكن. ومازالت الرياضة دانى الذى لا أعرف كيف أشفى منه. المهم أنى كنت الثامن فى امتحان آخر السنة، وأنى فى أثناء الدراسة عرفت الطريق إلى مكتبة البلدية، وكانت قريبة من منزلى، فبدأت أقرأ معتمدًا على نفسى كما تعلمت من ديمولان، أغرمت بالأدب الحديث والروايات المترجمة، وقرأت الكثير فى مجموعات الهلال والمقتطف والمجلة الجديدة. وسنة بعد سنة أصبحت المكتبة هى مدرستى الثانية التى أتعلم فيها كما أريد، غذيت نزعاتى الثورية المبكرة بقراءة «الثورة الفرنسية» و «نابليون بونابرت» لحسن جلال، و «الثورة العرابية» لفخرى أبو السعود، و «الاشتراكية» لنقولا حداد، وعن طريق سلامة موسى عرفت نظرية التطور ونظرية فرويد، وكان كتابه «العقل الباطن» ذا فضل عظيم علىّ فى مرحلة المراهقة، وسيأتيك نبأ ذلك بعد حين (وليكن ما يكون).

ولكن أهم ما حدث لى فى تلك السنة الأولى (بعد مرضى وشفائى) أنى كدت ألحق بأشقائى السابقين وأحرم أمى من وجودى.

كنت حديث عهد بالمدينة وأحوالها. وكان أمام حارتنا مباشرة سينما اسمها سينما طناش. لا علاقة لهذا الاسم بالطناش الذى يعرفه الناس الآن ويمارسه ٩٩٪ من المصريين طناش اسم شخص يونانى، ولابد أنه كان اسمه أثناسيوس أو نحو ذلك قبل أن يعربه أولاد البلد. (وبالمناسبة، كان فى شبين يونانى آخر، عمله بائع سمك، يلبس جلبابًا بلديًا، واسمه غير معروف، فصفاته تغنى عن أى تسمية، ولكن زوجته كانت مصرية وكان اسمها زكية). وكما كان فى مركز أشمون وفى «معظم المراكز وحتي القري يونانى عنده خمارة ومعمل كازوزة كان فى عواصم المديريات يونانى آخر يملك إلى جانب هذه الأشياء دار سينما. وقد تعودت أن أدخل السينما ليلة الخميس من كل أسبوع (ثمن تذكرة الترسو قرش صاغ واحد). كان المتعصبون للتعريب أيامها يسمون السينما «الصور المتحركة»، والحقيقة أنها لم تكن أكثر من صور متحركة، لا أظن أنى فهمت فيلمًا واحدًا من تلك الأفلام، رغم أن الشاشة الأصلية كانت مزودة بشاشة صغيرة بجانبها تحمل ترجمة للحوار، وكان العامل الذى يدير الفيلم ينسى أحيانًا فيكر مسافة طويلة من الحوار يستحيل تتبعها. ولذلك، ولأن أكثر المشاهدين كانوا أميين أو أشباه أميين، فقد كان فتوة السينما «حكيم» يقوم بوظيفة الراوى أثناء عرض الفيلم.

عندما كانت السينما تعرض فيلمًا مصريًا كان الإقبال يشتد، ولكن الأمر كان ينطوى على مخاطرة بالنسبة لصاحب السينما. فقد كان طلبة الزراعة (أى الزراعة المتوسطة) وهم الطلاب الأكبر سنًا والأشد قوة، يتجمعون على باب

السينما فى هيئة من يريدون شراء تذاكر والدخول من الباب مثل بقية خلق الله، ولكنهم يصيحون فجأة: «هجمة! هجمة!» وعند كلمة السر هذه يندفعون فى كتلة متراصة إلى الباب فيفتح على مصراعيه ويصبحون جميعًا فى الداخل. كنت ـ كما قلت لك ـ حديث عهد بهذه المدينة الظالم أهلها، وكانت أول هجمة وآخر هجمة أشهدها، وكان الشىء الأقرب احتمالاً ألا أخرج منها حيًا.

فى لحظة وجدت نفسى مرفوعًا إلى أعلى، كان إحساسًا لذيذًا، أن تعوم على بحر لا تدرى بالضبط من أين جاء، لا يمكن أن يكون هذا الإحساس اللذيذ قد دام أكثر من بضع ثوان، وشعرت بالأقدام فوقى. برق فى ذهنى خاطر أن الموت أصبح قريبًا جدًا. وإذا أنا واقف، ويدان قويتان تمسكان بذراعىّ.

كأنى أرى وجهه الآن: هادئًا، أبيض بحمرة، حسبته مألوفًا، ثم تذكرت أن زميلاً لى اسمه فتحى المصيلحى له شقيق فى مدرسة الزراعة. وكنا نعرف أن أباهما شيخ صالح، من مياسير الناس، يقصده الكثيرون من أهل المنطقة فلا يرد طالبًا، إن لم يستطع أن يقضى له حاجته بنفسه أو عن طريق أحد مريديه، فلا أقل من دعوة صالحة تنفعه. فى كل قرية ناس كهؤلاء (أسرة واحدة على الأقل) راضون مرضيون، على وجوههم سكينة، لا يغضبون أبدًا، ولا تخرج من أفواههم كلمة تغضب الله (أعوذ الله ألا يخلى بلادنا منهم).

مرة كان فتحى المصيلحى جالسًا بجانبى على مقعد فى حوش المدرسة، وتكلمنا عن دروس الأدب. كنا لا نزال فى تلك السنة الأولى، وأبديت ضيقًا بالشعر الجاهلى الذى كان مقررًا علينا، وانتقدت منهج الأدب لأنه يبدأ بهذه النصوص الصعبة، وكان الأولى أن ندرس فى السنة الأولى نصوصًا حديثة، ونتدرج حتى نصل إلى العصر الجاهلى. بالطبع لم أكن لأجرؤ على إبداء هذا الرأى لو لم أقرأه فى مقالة لدرينى خشبة نشرت فى «المجلة الجديدة». والحق أنى بدأت أحب الشعر من خلال كتاب «المنتخب من أدب العرب» الذى صرف لنا جزؤه الأول فى تلك الستة، ولكنى أقبلت على شعر صفى الدين الحلى والشاب الظريف والبهاء زهير والجزار والوراق، إذ كانت أشعارهم مليئة بأنواع الجناس والتورية التى كانت شائعة أيضًا فى أزجالنا العامية، وكنت قد بدأت أنظم الزجل مثل خالى عبد الفتاح.

فتحى المصيلحى أنشد بيت طرفة بن العبد:

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى

لكالطول المرخى وثنياه باليد

لم يكن هذا الموت الذى وصفه طرفة، والذى حاول فتحى أن يبين جمال التشبيه فيه مثل الموت الذى عانيته قبل أن ينقذنى منه أخوه. ولكنى دهشت لأن فتحى استطاع أن يتذوق هذا المعنى الصعب. حين حصلنا على البكالوريا لم يدخل فتحى المصيلحى كلية الآداب، ولم أسمع أنه قال شعرًا، الغريب أنه دخل معهد التربية البدنية.. ولكنه لم يكن الوحيد الذى تعلمت منه فن الأدب والكلام، وهو نفسه لا يقيم بينه وبين الأدب علاقة خاصة، ولا ينوى أن يبنى مستقبله عليه.

سنة بعد سنة، بين المدرسة والمكتبة، ما أتعلمه فى المدرسة يطير معظمه بعد النجاح فى الامتحان (إلا اللغات طبعًا) وما أتعلمه فى المكتبة يبقى معظمه (كثير من العلم والتاريخ والشعر وقليل من القصص والروايات). وحتى ذلك القدر الضائع من قراءات المكتبة علمنى دروسًا مفيدة: علمنى الفرق بين الأدب العظيم وأدب التسلية، فلم أنس «آلام فرتر» ولا «الأيام» وحولَنى هيكل من تراجم قادة الجيوش ومؤسسى الدول إلى تراجم الأدباء من الشعراء والمفكرين، فبعد كرومويل أصبحت أحلم بأن أكون مثل شلى. وبدأت أميز بين قراءة دقيقة متعمقة، أعيش فيها وتختلط بنفسى، وقراءة أقطعها وثبًا وألقيها جانبًا، تخترع مشكلة لا أصل لها، وتقدم حلاً لا قيمة له. وبعد أن وصلت إلى سرعة ستين صفحة فى الساعة أصبحت أكتفى ببضع صفحات. واحتملت محنة المدرسة دون اقتناع بقيمتها، ولكننى سررت حين دخل إلى فصلنا ناظرنا الجديد، أول ناظر معين من قبل الوزارة، الأستاذ محمود كامل حسن، وحيا الثلاثة الأول، وكنت ثالثهم، ولم أنزل عن هذا الترتيب إلى أن حصلت على البكالوريا.

أشد ما يخجلنى اننى لا أستطيع أن أقول كلمة طيبة فى حق أساتذتى، أو معظمهم كى أكون دقيقًا ـ وهذا ينطبق أيضًا على الجامعة، ولكن لماذا نتعجل

الأمور؟ كنت أحب دروس التاريخ والجغرافيا، ولكننى فى دروس التاريخ كنت أقول الدرس مع المدرس، فى صوت بين الهمس والجهر، وأكثر ما كان يحدث هذا فى السنة الأولى، التى درسنا فيها تاريخ مصر القديمة. كنت أكرّ ما حفظته بالليل عن بطولة رمسيس فى موقعة مجدّو ولا يخطر ببالى أن الحكاية كلها نخع، وأن أبطال هذه المعركة الحقيقيين كانوا أناسًا بسطاء من شعب مصر، مثل أولئك الذين كانوا بعد أربعة آلاف سنة يهجمون على الدبابة ليفجروها بقنبلة يدوية أو مدفع رشاش. على كل حال، التاريخ كان قصة جميلة، لم تنعقد إلا حين تعقدت الأمور بين مارا وروبسبيير ودخل فيها «الزنبقة الحمراء» الذى كان نبيلاً إنجليزيًا يمثل دور الأبله لكى ينقذ الأرستقراطية الفرنسية المعذبة فى رواية لمؤلفة إنجليزية اسمها: البارونس أوركزى «قررت علينا فى السنة نفسها، وكان أستاذ اللغة الإنجليزية الإيطالى الأصل (مستر كاربليو) يبغضها أشد البغض ويسخر من خيالها السقيم وأسلوبها السوقى ولا يشير إليها إلا بـ «تلك المرأة». ولكن الرواية أعجبت زميلنا الذى كان فى ذلك الوقت طالبًا فى العباسية الثانوية بمدينة الإسكندرية، ولم نكن نشعر نحن ولا غيرنا بأن زميلنا هذا سيصبح زعيمنا، وأن الرواية التى لم تعجب أستاذنا الإيطالى الحاقد على الأرستقراطية الإنجليزية أو الفرنسية أو كلتيهما معًا سوف تعجب زميلنا هذا الطالب فى مدرسة العباسية، ليستوحى منها رواية أخرى عن معركة رشيد، يسميها «فى سبيل الحرية» مع أن الرواية الأصلية كانت ضد الثورة الفرنسية، ولكنه لا يكتب منها إلا بضع صفحات، وأن هذه الصفحات سوف تنشر فى مجلة آخر ساعة التى كان يرأس تحريرها محمد حسنين هيكل، وأن صديقنا عبد الرحمن فهمى سيتم الرواية ويظفر بجائزة مقدارها خمسة آلاف جنيه ويعظم كثيرًا فى عيوننا نحن أعضاء الجمعية الأدبية المصرية. أليست هذه من أعاجيب القدر التى لو كتبت بالإبر على آماق البصر لكانت عبرة لمن اعتبر؟

على كل حال، وحتى نعود إلى الجد الخالص الذى لا يشوبه شىء من الهزل: كانت هذه السنوات (١٩٣١ - ١٩٣٦) هى السنوات التى فرخت جيل الضباط الأحرار، وأيضًا الرعيل الأول من الماركسيين، الذين أدخلهم الضباط الأحرار -

جيلاً وراء جيل - السجون والمعتقلات. نسيت أن أقول لك إن الرواية الأخرى التى قررت علينا فى السنة الخامسة الثانوية كانت «قصة مدينتين»، ومع أن دكنز الذى كان روائيًا أعظم بمراحل كثيرة من «تلك المرأة» لم يتحيز لفريق دون آخر، فقد كان فيها شىء من وصف الباستيل وكثير من وصف حفلات الجيلوتين، ولا شك أن هذه الأوصاف قد بلّدت مشاعر البعض منا، وخصوصًا حين وجدوا خبراء التعذيب من فلول الجستابو جاهزين بآلاتهم الجهنمية.

أما فى تلك الأيام فقد كنا نشتعل وطنية. ولم نكن نعرف من منا سيكون ضابطًا ومن سيكون معتقلاً. وكان هتلر وموسولينى فى أوج مجدهما، ولكن أكثرنا لا يفهم إلا أنهما زعيمان ونيان، يتحديان دولتى الاستعمار (فرنسا وإنجلترا) ولم يكن موسولينى محبوبًا لتاريخه الأسود فى ليبيا، فضلاً عن حربه ضد الحبشة، ولكن هتلر كان الزعيم الأوروبى الذى احترامنا وصافح خضر التونى فى أولمبياد برلين، والتقى به أحمد حسين فى برلين (حتى تكون له صحبة).

لا تنتظر أن تكون وطنيتنا متبصرة فى هذه السن. وإذا كان البعض منا قد كونوا عصابات لاغتيال الجنود الإنجليز فى الحرب العالمية الثانية، فلا تنس أن النزوع إلى العنف يصاحب تحولات المراهقة، وربما كان الدافع الوطنى، أو ما يشبهه، مجرد مبر لظهور تلك النزعة. حتى أنا الذى لم أقتل فى حياتى دجاجة (قتلت فأرين) كنت أضع تحت مخدتى خنجرًا. أما عبد المنعم حمزة (زميلى منذ المدرسة الابتدائية، وأوسط أولاد خالتى أم محمود صديقة أمى الصدوق منذ أيام أشمون) فقد زعم لى أنه ألف عصابة مع أصدقائه الذين يسكنون مثله فى البر الشرقى، وحاول إغرائى بالانضمام إليها زاعمًا أنهم سيحصلون قريبًا على مسدس حقيقى - يقتل.

والفضل فى إشعال روح الوطنية فى نفوسنا يرجع - بلا شك - إلى أساتذة التاريخ و،الجغرافيا، وأيضًا - ولا تستغرب - بعض الأساتذة الإنجليز. فهؤلاء كان بينهم اسكتلنديون يكرهون الإنجليز كرهًا عميقًا، وأيرلنديون يحاربون فعلاً، ومن هذه الطاقة الأخيرة «مستر أرشبولد» الذى كان يدرس لنا فى السنة الخامسة

الثانوية، أى سنة ٣٥ ـ ٣٦، وفى تلك السنة اشتعلت الحركة الوطنية من جديد، كان الوفد يحتفل فى ١٣ نوفمبر من كل عام بذكرى بدء الثورة الوطنية الكبرى، حين ذهب سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى إلى دار المندوب السامى البريطانى مطالبين بحق تقرير المصير للشعب المصرى، وفى احتفال ١٣ نوفمبر ١٩٣٥ ألقى مكرم عبيد خطبة نادرة ظل الناس يرددون مقاطع منها سنين طويلة، «أيها الشاب ثر، أيها الشيخ ثر، أيتها الأم ثورى»، أما فى ذلك اليوم فقد خرجت الجماهير المشتعلة حماسة ليتلقاها رصاص الشرطة التى كان يسيطر عليها ضباط إنجليز، وسقط عدد من الشهداء منهم سبعة من طلاب الجامعة.

رغم أن حركة ١٩٣٦ لا يمكن أن تقارن بالثورة الأم، ثورة ١٩١٩، فقد كان دور الطلبة أهم هذه المرة، فلم يكتفوا بالتظاهر ضد الاحتلال، بل راحوا يسفرون بين زعماء الأحزاب حتى تألفت «الجبهة الوطنية» وعقدت مع الحكومة البريطانية معاهد ١٩٣٦ التى أقرها برلمان ذو أغلبية وفدية، وتحمس لها محبو الإنجليز، بينما سخرت منها براعم النازية التى أخذت تلتف حول القصر، ولكن الرأى العام يومئذ رأى فيها انتصارًا للحركة الوطنية، وخصوصًا حين تبعها إلغاء الامتيازات الأجنبية سنة ١٩٣٧.

أحب أن أبرئ أساتذة التاريخ والجغرافيا من الميول النازية، لقد كانوا على كل حال، من الجيل الذى شهد ثورة ١٩ والمعركة حول الدستور، وكانت تدرس لنا فى السنة الثالثة الثانوية مادة اسمها التربية الوطنية، عمادها نصوص الدستور، مادتها الأساسية، وكان دستور ٢٣ لا يزال هو الأساس، ولكن كان يرفق به كتاب آخر يشتمل على التعديلات التى أدخلت عليه فى دستور ٣٠، دستور إسماعيل صدقى. لقد بقيت لدستور ٢٣ منزلة فى النفوس تقرب من التقديس؛ لأنه الدستور الذى جاءت به حركة شعبية، فحتى عندما أريد تكبيل الشعب بالقيود كان من الضرورى أن تصور على أنها مجرد تعديلات للدستور، الذى لا دستور غيره.

ولكن التوجه نحو النازية كان يعبر عن طموح الجيل الجديد لتحقيق الاستقلال التام، بحيث لا يبقى جندى أجنبى فى مصر، ولو أن هذه الدعوة بقيت مستترة

طوال الثلاثينيات، وفى مقابل ذلك اكتسبت جمعية «مصر الفتاة» ـ حزب أحمد حسين ـ شعبية بفضل «مشروع القرش» الذى جمع قرابة ١٨ ألف جنيه ـ رغم الأزمة الاقتصادية ـ من الطوابع ذات القرش، التى وزعت على نطاق واسع. وأتذكر أنه فى سنة ٣١ أو ٣٢ حضر إلينا فى شبين أخى مجمود ـ وكان لا يزال وفديًا صميمًا ـ ومعه تذكرتان لحفلة تبرعت بإحيائها أم كلثوم لمشروع القرش، وكانت المرة الأولى والأخيرة التى أشهد فيها حفلة لأم كلثوم.

مما يدل على طفولة التفكير وراء جمعية «مصر الفتاة» و «مشروع القرش» أن المشروع بدأ سلسلة مؤسساته الصناعية بمصنع للطرابيش؛ لأن الطربوش كان يلقب «تاج الوطنية» وإن لم يكن هناك إجماع على ذلك، بل كانت هناك دلائل على قرب اندثاره، باعتباره أثر من الاحتلال التركى.

لم يكن أساتذة التاريخ والجغرافيا يكلموننا فى السياسة (كمدرس الحساب فى المدرسة الابتدائية)، ولكننا من خلال دروسهم نمتلئ اعتزازًا بتاريخ مصر، وكفاح شعب مصر، وثروة مصر الطبيعية التى يسرقها الأجانب، ولو امتلكها الشعب المصرى لأصبحت مصر من أغنى بلاد العالم.

ولكننى لا أجد كلمة طيبة واحدة أقولها فى حق أساتذة اللغة العربية. إذا كنت اليوم قادرًا على أن أكتب هذا الكلام فقد فعلوا ـ كل ما فى استطاعتهم لتنفيرى من أى كتابة أو قراءة. والقراءة من كتاب المطالعة المقرر، وكانت حصة المطالعة غالبًا بعد الغداء ـ السادسة أو السابعة ـ مثل حصة الخط، ونحن نغالب النعاس. وقد تولى أساتذتنا قتل كتابين عظيمين قررا علينا فى السنتين الثانية والثالثة «كليلة ودمنة» و«أدب الدنيا والدين». ولم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا فى كتاب «المنتخب من أدب العرب»، إذ كان حجم المقرر فيه ضئيلاً، فبقى معظمه ملكًا لنا نحن ـ الطلاب ـ، لا يستطيع أن يفسده علينا مدرس سقيم الذوق، ومع ذلك فما زلت أذكر أستاذ السنة الثانية الذى كان يدرس لنا الأدب الأندلسى، وتعبير الإعجاب والانتشاء على ملامح وجهه الصفراوى وهو ينشدنا هذا البيت لشاعر أندلسى ما:

وتحت البراقع مقلوبها

تدب على ورد خد ندى

ورغم إعجابى باللعب على الألفاظ فى أشعارنا المصرية ـ فصيحة كانت أو عامية ـ فإنى لم أستطع قط أن أستسيغ صورة العقارب التى تدب على ورد خد المحبوبة ـ مسكينة تلك المحبوبة!.

أما أستاذنا فى الرابعة والخامسة والأدبيتين ـ وكان المفروض أن يعدنا للدراسة العالية، وأن من يميلون منا إلى اللغة العربية والأدب العربى سيذهبون إلى كلية الآداب؛ حيث طه حسين والآخرون الذين التفوا حوله، فلم يكن يعترف بطه حسين ولا العقاد ولا غيرهما. وحين قال له أحد زملائى إنى كتبت قصة، نفيت هنا الخبر بشدة، فهذا الرجل لم يحدثنا مرة واحدة عن كاتب معاصر، ولا شك أنه كان يعد قراءة المنفلوطى أو مسرحيات شوقى مضيعة للوقت، فكيف لو علم أنى أقلد كتابًا يسمون أنفسهم «المدرسة الحديثة» ويتحدثون عن مذهب «الريالزم» وأنى أبعث بواكير «إنتاجى» إلى أحد أقواد هذه الجماعة وهو محمود كامل المحامى الذى كان يصدر مجلة اسمها الجامعة؟ وعندما سألت هذا الأستاذ لأرضية ـ عن اسم كتاب أدبى قيم يوصينى بقراءته، لم يعرف إلا كتابًا واحدًا عنوانه «صهاريج اللؤلؤ» للسيد توفيق البكرى. يمكنك أنت ـ أيها القارئ ـ أن تبحث عنه وتقرؤه، أما أنا فقد كفتنى وأشبعتنى عينات صغيرة منه، قارنت هذا الأستاذ بأبى الذى سمى شقيقى الفقيد «أحمد لطفى»، وكان يرانى أقرأ «روز اليوسف» فلا يتعرض، بل يبدى إعجابه بأسلوب محمد التابعى. وقلت فى نفسى، لا عجب إذا كان أبى لم يدخل دار العلوم، ولم يحصل على عالمية الأزهر. ولم أعرف قبل ذلك الرجل أستاذًا ينتقم من طالب (ولو أن سوء خطى عرضنى. فيما بعد. لانتقام أشنع على يدى أستاذ فى كلية الآداب نفسها). كان موضوع الإنشاء فى اختيار نصف السنة: «تحدث عن خبر أفرحك» ـ أو شيئًا بهذا المعنى، فسولت لى نفسى أن أكتب موضوعًا بأسلوب الشعر المنثور الذى كنت أقرؤه عند أمين الريحانى، وأقول أمين الريحانى بالذات؛ لأنه كان يعنى بالإيقاع البارز والتقفية أحيانًا بعكس أسلوب جبران السهل المتدفق. فأعطانى الأستاذ ٣ من ٢٠. أما لماذا

كانت ثلاثة لا أربعة ولا أثنين ولا صفرًا؛ فلأن العدل يقتضى أن يقدر مجهودى تقديرًا ما، ويقتضى أيضًا أن أرسب فى امتحان العربى، وبما أن درجتى فى القواعد والأدب والنصرص كانت ١٦ من عشرين، فقد كانت الثلاثة هى الرقم الذى يضمن لى الكعكة الحمراء مع توخى العدل والإنصاف.

إذا سألتنى: من كان أشهر شخص فى شبين؟ سأجيبك بلا تردد: "عبد المجيد بياع الليمون".

والمسألة لاتحتمل خلافًا. فالأساتذة يعرفهم التلاميذ، والأطباء يعرفهم المرضى - أو مرضاهم بالذات، فلكل طبيب زبائنه الذين لا يعرفون غيره، وكذلك الأمر بالنسبة للمحامين، إلخ إلخ. أما عبد المجيد بائع الليمون فيعرفه كل من عاش فى شبين، ولو سنة واحدة، فيما بين العشرينيات والخمسينيات. وشبين، بما أنها عاصمة، وفيها المدرسة الثانوية ومحكمة الاستئناف، يتردد عليها الناس من المديرية (أى المحافظة) كلها. ومادام الشخص قد ورد شبين، فلابد أنه يعرف عبد المجيد. وقد سألت ناسًا منهم من يقاربنى فى السن ومنهم من يصغرنى بعشرين عامًا أو تزيد، منهم ناس من الدلتون، ومن البتانون، ومن الشهداء، ومن مليج، ومن كفر سنجلف القديم، ومن كفر سنجلف الجديد، فكلهم عرف عبد المجيد.

عبد المجيد بائع الليمون (دائمًا اليمون!) كان يجلس فى شارع السوق، فى سرة شارع السوق، فاشخًا ساقيه الخاليتين تمامًا من الشعر، مثل وجهه الأسمر المورد المنتوف بعناية حتى حاجبيه المكحولين تحت شعره الذى ينسدل بدلال من طاقيته الملوّنة، لم يكن يشبه فى شىء (إلا هذا الشىء) بائع الليمون والعنب الذى عرفته فى قريتنا، والذى لم يكن يتمتع، حتى فى هذه القرية الصغيرة المقفلة على أسرارها، بواحد على مائة من شهرة رصيفه الشبينى، ولذلك لم أعد أذكر اسم الأول، ولو ذكرته لما كان من اللائق أن أكتبه. لاشك أنى متآمر مع قريتى على

حجب أسرارها عن عيون الغرباء. ألم يراود أبى عن نفسه؟ كان الفرق بين العنبى والليمونى (لماذا لا أصطلح على هذين اللقبين حتى لا أغضب أحدًا؟) كالفرق بين بيت قروى صغير وعمارة شاهقة فى المدينة. لم يكن فى شبين حتى ذلك العهد عمارة شاهقة واحدة ولكن كان فيها عبد المجيد. أحسست بهذا السموق وهذه العظمة عندما كنت أسير يومًا فى شارع السوق فوجدت عبد المجيد أمامى. كان فى جلبابه الحريرى الهفهفاف، صدره مندفع إلى الأمام، وعجيزته مدفعة إلى الخلف، يسير بجانبه شخص عادى، لايكاد يلاحقه فى السير، ويكلمه من أسفل لأعلى، وعبد المجيد يحرك سبابته يمنة ويسرة ويقول بصوت لم أجهد نفسى لكى أتبينه ولا لكى أفقه معنيه: "والله ما أبات معاه أبدًا، لما يكون هيدينى ميت جنيه فى الليلة".

شخصية أخرى استرعت نظرى بعد أشهر قليلة من إقامتى فى شبين. لم أعرف اسمه، ولم يحدثنى أحد عنه، فلم تكن له شهرة عبد المجيد ولا كان يشبهه فى شىء إلا أن محل إقامته المعروف هو جانب من طوار شارع آخر تقع فيه بعض المبانى الحكومية. لم يكن يبيع شيئًا، كان يجلس فقط على الطوار، تحته فرشة نظيفة. متى تأتى؟ أليس له بيت يقيم فيه؟ وما حظه من الجلوس على طوار الشارع، ينظر أحيانا بهدوء واستعلاء. كنت أتساءل أيضًا عن مصدر رزقه. فى أزمة الثلاثينيات لم يكن يبدو أن مسألة الحصول على الرزق تمثل له أى مشكلة. كنت أراه نموذجًا للكبرياء والأنفة، كان ملك شبين وهذه الفرشة عرشه. حيرنى أمره سنين كثيرة، وبعد أن تركت شبين بمدة طويلة، ونسيت أمره، وعركتنى الدنيا وعركتها، ونلت ما أتاحه لى زمانى من خبرة متوسطة بأمور الجنس، تذكرت هذا الرجل فجأة، وضحكت من غبائى.

هذا الرجل هو النقيض الديالكتيكى لعبد المجيد. ومجلسه المختار قرب دواوين الحكومة (المحكمة الشرعية، المجلس الحسبى، إلخ) بنظرته الثابتة المتعالية، وجسمه الفارع الذى يشع رجولة، لايحتاج إلى "إكسسوار"، ولا إلى كلمات تفضح الأسرار. من يعرفه فى شبين؟ لم يتح لى أن أسأل المطلقات ولا الأرامل

الشابات، ولازوجات الرجال الذين هدهم المرض، أو الذين تعلق هواهم بعبد المجيد وأشباه عبد المجيد.

ولكن غبائى لم يكن السبب الوحيد فى بقاء "ملك شبين" متربعًا على عرشه الخرافى فى خيالى. فالمهنة الحقيقية Mr. Warren's Profession (مع الاعتذار لبرنارد شو) غير مشهورة، بل تكاد تكون غير معروفة، واعتقادى الآن وقد طويت كل مراحل الغريزة الجنسية وراقبت أطوارها فى نفسى وغيرى وقرأت عدة كتب علمية عن هذا الموضوع، أن الطبيعة لاتجود بها إلا نادرًا. "الجيجولو - gigol" هذه الكلمة المعرّبة، تصور فى ذهنك شابًا أنيقًا رشيقًا لايتجاوز الثلاثين، يعمل سكرتيرًا لامرأة ثرية فى نحو الأربعين، يصحبها إلى الحفلات ويظهر معها فى المجتمعات، ويرد على التليفونات والبرقيات، ويقضى لها سائر لوازمها. أما المستر وارن الذى يبز المسز وارن نفسها فى اعتماده التام على نفسه فضلاً عن اقتصاره على مهمة وحدة يجب أن ينجح فيها بنسبة ١٠٠٪، دون اعتبار للزمان أو المكان أو الحالة النفسية أو أى خزعبلات أخرى من هذا النوع، فظاهرة فريدة دونها عبقرية أى عبقرى.

السؤال الذى حيرنى هو: متى يعرف مثل هذا الرجل أنه أصبح واجبًا عليه أن يستقيل؟

أما أن مثل هذا الرجل موجود فعلاً فحقيقة أكدها لى أحد أصدقائى الخليجيين، ممن ارتادوا جميع دور الفن والخلاعة فى مختلفة أنحاء أوروبا. هذا الصديق رأى عبقريًا من هذا النوع يقوم مع زميلته بالفعل المطلوب، بحرفية متقنة، ليلة بعد ليلة، طبقًا للبرنامج، ولايفوتهما بعد انتهاء نمرتهما أن ينحنيا الانحناءة التقليدية أمام جمهور المتفرجين.

الشىء الذى لم يقله لى صديقى الخليجى، وفاتنى أن أسأله، هو كم مرة يقدم هذا "الدويتو" نمرتهما؟ فمن المعقول جدًا أن يتنقلا بين أكثر من ملهى واحد فى الليلة، ومن المعقول أيضا إذا كان العقد بينهما وبين ذلك الملهى بالذات يمنعهما من عرض فنهما فى مكان آخر، أن يقدم الملهى نفسه عرضين أو ثلاثة فى الليلة.

من المناسب ـ مثلا ـ أن يكون هناك عرض مبكر للعائلات. هذه تساؤلات مبعثها الحقد، ليس على صديقى الخليجى طبعًا.

والمسألة يجب على كل حال أن تبحث بطريقة علمية موضوعية. فمن المعروف أن مهنة "الرقيق الأبيض" ـ كما تسمى ـ أصبحت ـ فى حدود علمى ـ المهنة الوحيدة التى تقتصر ممارستها على المرأة، لمنفعة الرجال طبعًا. وبما أن إلغاء هذه المهنة مستحيل عمليًا، وسوف يعارضه كثير من الرجال. فالمساواة بين الجنسين تحتم أن يتخصص عدد من الرجال فى هذه المهنة أيضًا، حتى تنال النساء نصيبهن العادل. العلماء المتخصصون فى فسيولوجيا الرجال هم وحدهم الذين يمكنهم الإجابة عن هذا التساؤل، كما أن زعماء المافيا هم ـ وحدهم ـ الذين يمكنهم تحويل النتائج العلمية إلى ممارسات منتظمة، أما الثابت ـ حتى الآن ـ فهو أن هناك رجالاً مثل ملك شبين يمارسون المهنة على المستوى الفردى، وبالأسلوب الذى يختارونه، مثل الفنانين (عندما كان الفنانون أحرارًا).

قلت لك من قبل إنى جمعت باجتهادى الخاص ثقافة جنسية لابأس بها، وإن البيئة التى نشأت فيها لم تبخل علىَّ بمادة التفكير فى هذا الموضوع، إلى درجة إننى لا أستطيع تحديد الوقت الذى بدأت اكتشف فيه هذا العالم المستتر والمفضوح فى الوقت نفسه. ولكننى عندما عرفت طريق مكتبة البلدية بدأت أنظم معلوماتى عن هذا الموضوع وغيره، وكان أهم كتاب ساعدنى فى مرحلة حرجة من حياتى، هو كتاب "العقل الباطن" لسلامة موسى.

لقد قرأت عن "الليبيدو" وتطوراته، فلم أعُد أفزع من نفسى إذا ضبطتها متلبسة بالنظر إلى ما تعلمنا ضرورة ستره أو غض البصر عنه، وبالذات من أجسام بعض المحارم! والشىء الآخر والأخطر هو ماقرأته فى هذا الكتاب عن مرحلة الجنسية المثلية. فقد كان المغتابون والنمامون يصفون شبين الكوم ـ بما معناه ـ أنها سدوم صغيرة. لاشك أن هذا الادعاء له علاقة بشخصية عبد المجيد الشعيرة، فكلاهما يدعم الآخر. ويترتب على ذلك أنك إذا كنت فى الحادية عشرة أو الثانية عشرة فيجب أن تحافظ على نفسك جيدًا، وإذا حدثتك نفسك بأن تكون الطرف الفاعل فلتحذر أيضًا أن تكون العملية مرتبة كطعم لاصطيادك.. أما

إذا كنت قد عرفت أيضًا معنى "التثبيت" - أى توقف النمو الجنسى عندم رحلة معينة، ولعلى قرأت هذا عند سلامة موسى أيضا، فالأفضل لك أن تعبر هذه المرحلة بسلام حتى تصبح إنسانًا سويًا قادرًا على الزواج بدون فضائح. لعلى قرأت فى تلك الفترة عن أوسكار وايلد وما نابه، الفضيحة والسجن والبهدلة وهو أديب مشهور ورب أسرة أيضًا. وقد أصبح معروفًا - الآن، على سبيل اليقين - أن تشايكوفسكى لم ينتحر لأنه فشل فى زواجه، ولم يفشل فى زواجه لمجرد سوء الحظ، أو تنافر الطباع، ولكنه فشل فى الزواج ثم أمر بأن ينفذ فى نفسه حكم الإعدام؛ لأن هذه العادة التى لم يستطع أن يقلع عنها رافقته فى زواجه، بل بلغ من تمكنها منه أنها جعلته يعض فى عظمة كبيرة، أو على الأصح قرقوشة عظمة كبيرة، باختصار أن أحد كبار النبلاء علم بأن الموسيقار يراود ابنه الفتى عن نفسه فخيره بين الانتحار والقتل بطريقة أخرى، فاختار الموسيقار الانتحار، وأن الله أمر بالستر.

حكاية تشايكوفسكى لم أقرأها إلا حديثًا، أما أوسكار وايلد الذى أصر على الوقوف أمام المحكمة ومواجهة التهمة فقد كانت مشهورة شهرة كتابه الذى ألفه فى السجن "من الأعماق". ولذلك يعد وايلد رائدًا من رواد الحرية والمساواة فى الحقوق بين اللوطيين وغير اللوطيين (أتساءل: إذا كانت المسألة هكذا بسيطة، فلماذا يتجنبون التسمية القديمة، التى تشرف بالنسب إلى نبى من أنبياء الله الصالحين، ويتخذون هذا الاسم الجديدthegay community (أى المجتمع السعيد أو الفرحان - لعلك تفضل ترجمة أخرى: "المبسوط" مثلاً؟)

على كل حال، أنا أفهم تمامًا حالة العشق القريبة من الجنون والتى جعلت تشايكوفسكى ينسى جميع الاعتبارات الاجتماعية، زيادة على الاعتبارات الأخلاقية، ويزج بنفسه فى هذه المغامرة الجريئة التى دفع حياته ثمنًا لها. وسأروى لك بعد قليل، شيئًا عن التجربة التى تجعلنى الآن قادرًا على فهم حالة رجل مثل تشايكوفسكى. لكنى أتذكر شيئًا آخر من قراءاتى فى الفترة نفسها: كتاب "قادة الفكر" لطه حسين، وأول فصل فيه عن سقراط، وسقراط حوكم مثل أوسكار وايلد الذى كنت أعرف شيئًا عن سيرته، وانتحر بالسم مثل تشايكوفسكى

الذى لم أكن سمعت عنه، ولاعرف العالم فى ذلك الوقت سبب موته، يبدو أننى ربطت ـ مع الأسف ـ بين محاكمة أوسكار وايلد ومحاكمة سقراط. فقد كانت التهمة التى وجهت إلى سقراط هى "إفساد عقول الشباب". ترى ما التهمة فى الحقيقة: إفساد عقول الشباب أو إفساد الشباب نفسه؟ فالرجل ـ كما قال طه حسين ـ لم يكن يفسد عقول الشباب بل كان ينظفها من الشكوك التى زرعها السوفسطائيون.

سأقرأ المزيد عن سقراط فيما بعد، وأقرأ بين الطرائف التى تروى هن العظماء أنه لم يكن على وفاق مع زوجته، فحكايته هو أيضًا؟ وأقرأ فى "المأدبة" أن شابًا مليحًا من قواد الجند رقد معه ذات ليلة وجعل يناغشه دون جدوى. فهل تدل هذه الحكاية ـ وقد وردت فى نص أدبى ـ على أن سقراط كان عزفًا عن ذلك الشىء أو العكس، وهو أنه عرف عنه ذلك، ولكنه شك فى أن الشباب (ألكيبيادس) يريد أن يفضحه، فتحكم فى انفعالاته، وهذا ـ على كل حال ـ أمر غير مستغرب من فيلسوف؟

Boyser كلمة لم أصادفها فى أى نص باللغة الإنجليزية، ولا وجدتها فى أى معجم إنجليزى، ولكنى سمعتها وحفظتها فى مدرسة شبين الكوم الثانوية. كانت تقال - همسًا بالطبع - عن بعض المدرسين، والله أعلم إن كانت حقًا أو كذبًا، فالذى يمكنه أن يؤكد صحتها هو.. الحكاية مفهومة والنكتة مشهورة ولاحاجة لتفسير أكثر. أما نفيها فلا يمكن الجزم به، فالناس يأتون هذه الخبائث ومن استتر بستر الله ستره، ومن ادعى ولم يستطع أن يأتى بأربعة شهداء أقيم عليه حد القذف ثمانين جلدة، هكذا حدث فى قصة معروفة فى بلد بعيد جدًا عن شبين. أما فى شبين فلم أسمع قط عن حادثة من هذا النوع قدمت إلى محاكمنا التى تطبق "القانون الوضعى".

ولكن القصة التى سأرويها عن نفسى جاءت سليمة والحمد لله، وأنت تفهم ولاشك لماذا أعجل بالخاتمة ضاربًا عرض الحائط بكل قواعد التشويق القصصى. كنت فى سن الثانية عشرة طالبًا متقدمًا، لا يقل ترتيبى عن الثالث، ولا أحتاج إلى مكرمة من أحد، يمكن أن يطلب ثمنًا لها. وقال لى مدرس كانت حوله إشاعات من هذا النوع: أرنى كتابك لأضع منه الامتحان. مدرس وليس عنده كتاب؟ بدأت أرتاب فى أمره، واشتدت ريبتى لما تأخر فى رد الكتاب، والامتحان (امتحان نصف السنة) أصبح على الأبواب. كان أعزب، يسكن فى منزل بعيد عن منزلى، ولايمكننى أن أجزم هل جرؤ على أن يدعونى للذهاب إليه فى بيته لآخذ الكتاب، لأنه ينسى إحضاره فى كل مرة؟ لعله فعل ذك، ولكن الذى فعلته أنا هو

أنى لجأت إلى محمود حمزة، وكان بيتهم قريبًا من بيت المدرس، ليذهب إليه ويحضر الكتاب منه.كان محمود ـ أولاً ـ يكبرنى بسنتين أو أكثر، وثانيًا لايهمه هذا المدرس فى شىء، لأنه لايدرس له ولن يدرس له، أما ثالثًا وهو الأهم ـ فلا غرابة فى أن يوفر على المشوار، وإذا كان غرض المدرس سيئًا ـ كما رجحنا ـ ، فسيعرف ـ مثل كل مجرم ـ أن تدبيره افتضح، ولن يستطيع معى شيئًا حتى ولا نقص درجاتى فى الامتحان.

لعلى حدثتك من قبل عن خالتى أم محمود، صديقة أمى منذ أيام أشمون، كان محمود هو أكبر أولادها الكثيرين، وكانت تهدئ مخاوف أمى من أن أموت كما مات الإخوة الذين سبقونى، وتسمى نفسها أمى الثانية وتود لو تخلطنى بأولادها حتى أعيش مثلهم. سبقونا إلى شبين بسنة واحدة فحين انتقلنا إليها لم تكن أمى تعرف فى شبين غيرها، ولا أنا أعرف غير أولادها، ولكن بيتهم كان بعيدًا عن بيتنا، فلم أكن أذهب إليهم إلايوم الجمعة، وكانت المكتبة ـ على كل حال ـ قد بأت تستأثر بكل أوقاتى الحرة. وعبد المنعم أقرب أولادهات إلى سنى، كان أشبه بقريب أتحمله على مضض منه برفيق فى المدرسة أو صديق خارج المدرسة، كان متأخرًا فى دراسته، مندفعًا فى تصرفاته، فلم أكن أحب أن أتحمل نتائجها معه. أما الأكبر محمود فكان مختلفًا جدًا هو الذى عرفنى طريق المكتبة وأوصانى أن أبدأ بقراءة "الأيام" و"آلام ڤرتر". وكما تعلمت من زميلى فتحى المصيلحى الذى دخل مدرسة التربية البدنية بعد حصوله على البكالوريا أول درس فى جمال الشعر الجاهلى، تعلمت من محمود حمزة (وقد دخل معهد التربية، القسم العلمى، وأصبح مدرس رياضة) أول درس فى فن الكتابة ـ بل أهم درس فى الحقيقة.

سألنى يومًا: ما أهم شىء للكاتب؟

لعلى أجبته: الثقافة. لعلى قلت أيضًا: الصدق. لعلى قلت أشياء أخرى، ولكنه لم يقبل واحدًا منها. وأخيرًا قال لى بابتسامة حلوة، لم تزدنى إلا شعورًا بجهلى: الأسلوب.

هأنذا يامحمود مازلت فى ذلك الدرس الأول. تكاد عيناى تمتلئان بالدموع كما امتلأتا طول الطريق وأنا جالس فى القطار بين القاهرة وشبين، لأعزى أمى الثانية التى فجعت فيك ولم يمض على زواجك إلا بضع سنين، كما فجعت فى الأوسط عبد المنعم قبلك بقليل. قلت لى وأنا أعزيك فيه: عبد المنعم استقام جداً فى آخر أيامه، كانت على مكتبه دائمًا سير عظماء المسلمين: سيرة عمر المختار وسيرة خالد بن الوليد. كان يريد أن يموت شهيدًا. وحقا: زرته أنا فى المستشفى حين عاد جريحًا بعد أن حارب مع المتطوعين بقيادة الشهيد أحمد عبد العزيز، وأصر على العودة إلى القتال حين تحرك الجيش إلى فلسطين.

كيف أعزيك عن بكرك يا أمى الثانية؟

هل أقول إن الحظ قسم الموت بينك وبين صديقتك، فأخذ البكرين منها وهما رضيعان، وأخذ البكرين منك وهما رجلان ملء العيون؟

وهل تمتلئ جوانحك بالفخر، أنت المرأة القوية، حين ترين اسم "الشهيد عبد المنعم حمزة" على شارع فى شبين، وآخر فى أشمون؟ أم تتوسمين فى بنت محمود وابن محمود تلك الابتسامة الحلوة، تلك الروح الشفافة التى كانت تفيض حبًا للناس، كل الناس؟

لا أدرى كيف أنتقل من هذا الفاصل الحزين - مرة أخرى - إلى شبين وأيام شبين. يعوزنى الأسلوب يا محمود.

قصة المدرس المريب، التى توليت فيها دور المنقذ، تذكرنى بقصة أخرى، كنت أنا فيها المجرم المعتدى، وكنت الأخ الأكبر العاقل. لم أشعر بالخجل يومًا كشعورى يوم قلت لى تلومنى، دون أن يبدو عليك الغضب: "هل صدقت ما يقوله هذا الثعبان...، إن صديقنا "س" رجل لا شك فى ذلك".

كان ظنك صحيحًا فى أمر "الثعبان"، فقد سمعت كلامًا وصدقته، ولعله شجعنى أن أراود "س" عن نفسه، ولكن الأمر كان أقدم من ذلك وأخطر بكثير.

"س" كان له قوام جميل، رائع. كان يكبرنى بعام أو عامين، وكان يجيد السباحة والغطس فى ماء بحر شبين. وذات صباح، ربما كان فى الإجازة الصيفية، وأنا ابن

إحدى عشرة سنة على الأكثر، رأيته يقفز من على جسر أو منصة ما ليحتضنه الريّاح.

عندما أصبح فى الماء، رأسه إلى أسفل، رأيت الجزء الذى أصبح فى القمة، ويالها من نظرة أعقبتنى ألف حسرة كما تقول قصص ألف ليلة وليلة. شىء يشبه الوردة، فى أخطر مكان من جسمه. بعد أقل من سنتين، وكنا نستعد لامتحان الكفاءة، وهو امتحان شديد الصعوبة؛ لأنه يشمل جميع مقررات السنوات الثلاث الأولى من المرحلة الثانوية، أرسله ذووه إلىَّ ليذاكر معى، فقد كنت متفوقًا وكان هو عاديًا أو أقل من العادى. الحجرة ذات الكنبات العربية الثلاث كانت تؤوينا قسمًا كبيرًا من الليل وربما بات عندى. لم أكن سمعت ذلك الكلام الذى سمعته فيما بعد عن "س"، ولا قرأت حكاية سقراط والكيبيادس ولم أكن فيلسوفًا، ولكن ربما كانت فى بذور فنان مجنون مثل تشايكوفسكى.

على كل حال، من الذى يمكنه أن يصمد لإغراء الحسن؟ قرأت فى كتاب "حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح" لابن القيم قصة ذلك الشيخ الزاهد الذى ابتلى بمثل ما ابتليت به، فكان يقوم كل حين إلى شمعة فى الدار ويضع أصابعه فى لهبها، ليتذكر حر نار جهنم، حتى طلع عليه الصباح وأصابعه قد تناثر لحمها. هذا الشيخ الزاهد يعرف، وابن القيم يعرف، وتشايكوفسكى تناول السم. فبالله لاتظلمونى أيها الناس.

صبى لم يتم الثالثة عشرة، ولم يدرك بعد، ولم يجرب، والهواء اللعين أطار ذيل جلباب صديقه وهو نائم. كنت جالسًا أمامه فأصابتنى رعدة. رعدة فى عز الصيف، ولم أستطع أن أقاوم، فخطوت خطوة أو خطوتين، وأخذت ألمس فخديه بأصابعى، ثم استولى علىَّ الفزع، ورجعت إلى مجلسى وأنا مازال أرتعد.

أما هو فلم يلبث أن فتح عينيه، مرخيتى الجفون، ونظر إلىَّ بشىء من الدهشة. هل شعر بما فعلته؟ هل قام ورجع إلى داره؟ هل استأنفنا المذاكرة؟ لاأذكر من ذلك شيئًا. عندما هاجمته بعد ذلك بنحو سنتين، وقد أدركت وبدأت أتخبط فى مغامراتى الجنسية الطائشة، صدنى ووبخنى، وزاد على ذلك أنه شكانى إلى محمود حمزة.

واستعنت بفرويد وسلامة موسى حتى تجاوزت هذه المرحلة المثلية، ولكننى كنت قد أصبحت مرهف الشعور إلى حد المرض، وساء ظنى بنفسى وبالناس، ودخلت فى حالة من الاكتئاب والضياع. وخيل إلىَّ، مرة بعد مرة، أنى وجدت طريقى. لماذا إذن، بعد أن غابت سنوات المراهقة فى طوايا الذاكرة، هزنى خبر سمعته عن "س" وأعادنى إلى صورة ذلك الصبى الجالس على طرف الكنبة، يرتعد فى عز الصيف؟

وردة "س" لم يتركوها للذبول، سقاها غيرى. سقوها وسقوها حتى طابت له السقيا.

هل كان ذلك شيئًا قديمًا من عهد المراهقة الذى حدثتك عنه؟ هل كان "ذلك الثعبان" صادقًا فى روايته، ومحمود حمزة طيبًا كعادته، ولكن إلى درجة السذاجة هذه المرة؟ وأنا؟ فى كل ما قرأته من قصص العشق المجنون، لاشفاء من هذا المرض إلا بالموت. إذا "وقعت محبة" إنسان فى قلب إنسان آخر - أتكلم هنا بلغة ألف ليلة وليلة، لابلغة مجنون ليلى - فقد أصبح المحب أسير محبوبه مدى الحياة. سألت نفسى: ترى لو طاوعنى "س" تلك الليلة، كيف كانت حياتى تسير؟

فى فترة الاكتئاب التى حدثتك عنها، صادفت أخًا أكبر آخر، الأستاذ عبد العظيم محمود زميلى فى المجمع اللغوى، ولو أن فارق السن بينى وبينه يجعله أقرب إلى أخى محمود منه إلى محمود حمزة، كما أن تعليمه الأزهرى يجعله أقرب إلى أبى، ولكنه لم يكن فيه شىء من صرامة أبى. آنست إليه حتى صارحته مرة بما أظنه سر اكتئابى، قلت له: إنى مرفوض من الجهتين: الله لايقبلنى، والشيطان زاهد فىَّ. فنظر إلىَّ الرجل نظرته العطوف وقال: من العفة ألا تجد.

أما البيت فكان هادئًا رغم فقره. استمر أبى فى العمل سنتين فى مدرسة أشمون، فكان يقضى معنا الخميس والجمعة، ولكنه فى آخر المدة بدأ يشعر بأعراض مرض القلب، فجاءت نهاية خدمته فى الوقت المناسب. كان يستريح فى فراشه معظم النهار، يخرج قليلاً فى الصباح الباكر، وربما خرج بعد العصر ليمكث وقتًا مع صاحب مكتبة فى شارع السوق، وينام من أول الليل. ولكن مرض القلب كان يتقدم، وأخذنا نصحو فى جوف الليل فنجده مضطجعًا ونسمع صوت قلبه أزيزًا متتابعًا أشبه بالأنين. كان قلبه يئن وهو صامت. وندلك قدميه الباردتين وننتظر طلوع الصباح. لا أذكر أنه اهتم كثيرًا بالذهاب إلى طبيب أو تعاطى أى دواء. ولا أذكر كم مرة حدثت له هذه الأزمة، ولكن المؤكد أنها تكررت حتى أصبحت جزءًا من حياته وحياتنا. وبعد الأزيز أصبحنا نسمع دقًا قويًا أشبه بصوت مكنة الطحين القريبة من بيتنا فى الكفر.

قلت زياراتنا إلى الخالة فى طنطا والخال وبنات العم فى القاهرة، ولم نعد نقضى جزءًا من عطلة الصيف فى الكفر كما تعودنا، فقد ألفنا بيت أشمون أكثر من غيره، وأبقينا شقتنا فيه على حالها، ومازال المكان الذى يقضى فيه أبى معظم أوقاته هو الجامع، وبعده دكان ساعاتى هادئ الطبع يصغره كثيرًا فى السن، وله لحية طويلة كثيفة، ولعله كان من "السبكية" الذين تأثروا بالمذهب الوهابى. أما أبى فلم يكن ملتحيًا.

أصياف أربعة قضيتها فى أشمون، كان آخرها صيف ١٩٣٦، وكنت أقضى معظم أوقاتى فى بيت أخى "الأستاذ" كما أصبحنا نسميه كلنا، وقد أصبح لى فيه "أخ أكبر" لا أكاد أفارقه، وهو محمد عمر ابن أختى، ولاتعجب، فقد كانت أختى الكبرى من زوجة أبى الأولى تقارب أمى فى السن. وقد أصيب محمد فى عينه بإصابة سدت أمامه أبواب التعليم، فقد كان "الكشف الطبى" لايتسامح فى أى إعاقة حتى ولو كانت فقد إحدى العينين. ولا أظن أن محمد عمر تجاوز المدرسة الابتدائية أو حتى الأولية، ولكنه كان جميل الخط، محبًا للقراءة فى كتب الأدب. وكان فوق ذلك حلو الفكاهة، وقد تعلمنا - وأنا أتقدم نحو المراهقة - أن نخرج عصر كل يوم للنزهة فى شارع الترعة بحرى البلد، ووافق اختيارنا للموعد والمكان سربًا من الحسناوات أذنا نتجرأ على معاكستهن حتى أخلينه لنا.

أما الصباح فغالبًا ما كنت أقضيه فى مكتب الأستاذ؛ حيث يعمل محمد مساعدًا لإبراهيم مازن. وكانت ملاحظة زبائن المكتب وزيارة المحكمة أحيانًا تطلعنى على جوانب من الحياة لاشأن لها بالكتب الى كنت أستعيرها من مكتبة أخى، وأهم ما أعجبنى منها مسرحيات شوقى. قد تكون "الست هدى" استثناء من هذه القاعدة ولكنه استثناء يبعدها عن إخوتها ويبقيها تائهة فى الشارع وحدها. عثرت على كنز آخر فى بيت الأستاذ وهو مجموعة كبيرة من أعداد السياسة الأسبوعية، كانت تنشر فى آخر كل عدد قصة مترجمة، وفيها كان لقائى الأول بموبسان، وكان كثير من مقالاتها يكلفنى جهدًا لفهمها، ولا أعرف الآن كم بقى فى عقلى منها، ولكنى سعدت حين وجدت اسم أحد أساتذة التاريخ فى مدرستنا على بعض هذه المقالات، وهو الأستاذ عبد العزيز مبارك.

لقد حدثتك من قبل عن السنة التى حصلت فيها على البكالوريا -١٩٦٣- والحركة الوطنية ومظاهرات الطلبة فى تلك السنة. ولكننى أرجو ألاتكون قد نسيت أنى حدثتك أيضًا عن مظاهرة قام بها تلاميذ مدرسة أشمون الابتدائية سنة ١٩٢٨ أو ١٩٢٩ ضد وزارة محمد محمود "صاحب اليد الحديدية" كما كانت تلقبه صحف الوفد. ولعلك تتذكر أيضًا أنى أبليت فى هذه المظاهرة بلاءً حسنًا حتى عدت إلى البيت وأنا لا أستطيع أن أخرج صوتًا واحدًا سليمًا من حلقى. وقد قلت لك أيضًا إن هذه المظاهرة كانت أول وآخر مظاهرة أشترك فيها. أول -

معقول، ولكن لماذا آخر؟ هكذا! لايمكننى أن أفخر بأنى جرحت فى مظاهرة، أو حجزت ولو يومًا واحدًا فى قسم بوليس، أو استدعيت لتحقيق سياسى، أو سجنت أو اعتقلت. وإذا شعرت بالأسف لأنك استدرجت لقراءة "سيرة ذاتية" (والله خسارة فيها الاسم) لإنسان خلت سيرته من أى حادث مهم كالأحداث التى ذكرتها، فأرجوك ألاتغضب، ولنفترق أصدقاء.

وفى إحدى عطلات الصيف - لعله كان صيف ١٩٣٣ - زارنا أخى الأكبر محمود، ونزل فى بيت الأستاذ، وكنا نخرج جميعًا - محمد عمر وأنا مع أخوى الكبيرين - لصيد السمك، وجلسة صيد السمك يعذب فيها الحديث، وعرفت فى هذه الجلسات زجل بيرم التونسى، وكان أخى محمد من عشاقه - ابن أبيه! - وكان يشترى مجلة من قطع "المطرقة" إلا أن ورقها أبيض، لا كورق "المطرقة" الأصفر، مجلة "الإمام" أصدرها أحمد زكى أبوشادى، كما أصدر مجلة "أبوللو"، وكان بيرم يحررها كلها تقريبًا، ولعل بيرم كان مختفيًا فى مصر فى تلك الأيام بعد أن دخلها خلسة - وكان الملك فؤاد قد أمر بإبعاده عن البلاد؛ لأنه هزأ بإحدى فضائح القصر فى زجل مشهور له. قرأت زجلا أجمل كثيرًا من أجل عبد الفتاح شلبى وأصدقائه (وقد أصبح الخال عبد الفتاح بعد ذلك من أخلص تلاميذ بيرم). ومع أن مرحلة "الإمام" كانت مقدمة لصدور عفو ملكى عن بيرم، فقد حملت شيئًا من روحه الثورية، أو لعلى شعرت بهذه الروح فى أزجال أخرى رواها أخى محمد.

وأين ذهب كرومويل؟ وشلى؟ وعرابى؟ ونابليون؟ أين ذهبت الثورة الفرنسية ومبادئ الاشتراكية؟ هل اكتفيت بأن أعيشها فى الأحلام؟

على أن أذكرك بجانب آخر من تناقضاتى (وهى السبب الوحيد الذى يمكن أن تقرأ هذه "السيرة" من أجله). فرديتى الفظيعة. كرهى للنمطية فى أى صورة من صورها. إذا هتف الناس لا أهتف. إذا صفقوا لا أصفق إلا رعاية للمظاهر. لا أقول "آمين" وراء الإمام فى الجامع إلا لتصح صلاتى. لا أحب أن أكون نسخة بين آلاف النسخ أو مئاتها أو عشراتها. والآن يرعبنى التفكير فى "الاستنساخ" وأراه آخر درجات الانحطاط فى تاريخ الجنس البشرى. لو أن فرديتى كان فيها نوع من

حب الظهور لخرجت من نابليون بشىء. ولكننى شديد الحياء، شديد الشعور بتفاهة شخصى.

إذن، فكيف أتعامل مع الناس؟ كيف كنت أتعامل مع زملائى فى فصل "خامسة أدبى"، الذى كان يتزعم المظاهرات فى مدرسة شبين الكوم الثانوية، بل فى مدينة شبين كلها؟ كنا نلتقى عصر كل يوم عند مكتب البريد قرب السوق، نرتب ما سنفعله فى الصباح، وبعد أن أقوم بدورى المحدود، وتنطلق المظاهرة، أذهب إلى بيتى.

يوم واحد سيطرت فيه الغوغائية على جموع الطلبة فاندفعوا إلى معمل الطبيعة والكيمياء وأحرقوه. لم تكن المدرسة تستحق منا ذلك. لم يكن ناظرنا، الأستاذ محمود كامل حسن، ذلك المربى العظيم، يستحق منا ذلك. كانت المظاهرة تتجمع عندما يدق جرس طابور الصباح، وبعد كلمة أو كلمتين من بعض الخطباء لتلخيص "الموقف الحاضر" والدعوة إلى الخروج فى مظاهرة، تفتح لنا أبواب المدرسة ونخرج فى سلام.

ناظرنا الجليل لم يطق البقاء فى المدرسة بعد ذلك الحادث فطلب نقله الى ديوان الوزارة. ولكنه قبل أن يغادرنا قام بعمل أخير رآه واجبًا عليه (ربما ليترك المدرسة فى حالة شبه مستقرة) أبلغ عددًا كبيرًا من أولياء الأمور أن أبناءهم ممنوعون من الدراسة، ويعددون مفصولين إذا لم يحضر ولى الأمر لمقابلة الناظر. كنت من هؤلاء. وربما كان طلبة "الخامسة أدبى" جميعا منهم، عدا طالبين أو ثلاثة، أعلنوا ـ بصراحة، ومن أول الأمر ـ أنهم لايمكنهم أن يشتركوا معنا، وكانوا يقفون بمعزل عنا، الله أعلم بحالهم، أحدهم ـ وكنا نرشحه زعيمًا؛ لأنه كان فارع الطول، وكان يشتك فى الاسم مع أحد زعماء الحركة الوطنية ـ لم يدخل الجامعة ووظفه أبوه بالبكالوريا.

ولكن أبى أنا...؟ لماذا فعل بى وبنفسه مافعله فى ذلك اليوم الأغبر؟

استدعيت إلى حجرة الناظر، وأظننى كنت أعلم أنى سأجد أبى فى انتظارى. ولكنى لم أكن أتخيله بهذا المنظر. كان يلبس جلبابًا من الصوف البلدى، أسود

اللون حقيقة، ولكنه لايليق بشيخ محترم، كان معلمًا، ونادرًا ما رأيته عليه. كان هذا أول جزء من التمثيلية التى أعدها. أما الجزء الثانى فتوبيخ لم أع منه شيئًا، صحبه بصفعة تحملتها هذه المرة، ولكن الجزء الثالث كان أقوى الأجزاء فى تمثيليته، ومازلت أذكره وكأنى أراه الآن:

أبى يشد طرفى فتحة جلبابه كأنه يلفت النظر إلى رقة حاله، ويصرخ أمام الجميع: "أنا فقير. أنا غلبان".

أستطيع أن أغتفر لك كل شىء يا أبى، إلا أن تهين نفسك. القدر ليس بعيب، ولايلزم أن يجعل الإنسان "غلبانًا".

لبثنا بعدها أيامًا لايكلمنى ولا أكلمه، ولايكاد أحدنا ينظر نحو الآخر. مرة واحدة التفت إليه وهو راقد فى فراشه كعادته، وذلك حين رأيت "عصا" قرب الباب. وأحسب أن نظرتى لم تخل من سخرية، وأحسب أنه خجل من نفسه.

رغم كل شىء، أشفقت عليك يا أبى. فليس من السهل أن يعتذر أب لابنه، الابن يمكن أن يمحو خطأه بالاعتذار، ولكن الاعتذار - حتى إن حدث - لايمحو خطأ الأب.

كل ما جرى بعد ذلك بينى وبينه لا أذكره حتى يوم وفاته.

الموت - ذلك الغياب الدائم - يظل حادثًا لاتهضمه النفس. وموته لم يكن مفاجئًا، وإن بدا كذلك، فقد كنا نتوقعه فى كل نوبة نسهر بجانبه وقلبه يئز أو يدق. كل الفرق أن تموت تخير له وقتًا جميلاً.

أحتجت إلى زمن طويل حتى أتعود غيابه، وإلى وقت أطول حتى أتبين حقيقة مشاعرى نحوه. لم يكن الحزن لموته. إنما حزنت، وما زلت حزينًا؛ لأنه سبقنى بالموت قبل أن أعيد إليه كبرياءه.

بعد موت أبى أظهرت أمى من الصلابة وقوة الشخصية ما مكنها قبل بضع وعشرين سنة أن تصبر على مكايدة ضرتها، ثم أن تصادق الابنة الكبرى لزوجها، وكانت تقاربها فى السن، صداقة دامت طوال حياتهما، وأن تشعر أبناء ضرتها دائمًا، حين يزوروننا أو يقضى أحدهم معنا وقتًا يقصر أو يطول، أنهم فى بيت أبيهم لا فى بيت ضرة أمهم. تعودت ذلك منذ صغرى، فلم أستغربه قط. ولكن علاقة الابن بأمه ـ فى جيلى أنا ـ كانت شديدة التعقيد، اترك عقدة أوديب على جنب، ربما أتحدث عنها فيما بعد، ففى مجتمعنا كانت تغطى عليها عقدة التشبه بالأب. كان الانتماء إلى جنس الذكور يجعل الطفل منا حريصًا على الابتعاد عن أمه، ومن المضحكات أنه إذا اضطر إلى السير معها فى طريق عام حاول أن يبتعد عنها، كأنها امرأة غريبة وليست أمه. وعندما كان أبى يصحبنا إلى زياراتها البعيدة فى طنطا أو القاهرة أو الإسكندرية. كان يغيظنى منها أنها تحاول رسم خط السير (خصوصًا إذا ركبنا الترام فى القاهرة) فلا يجوز لها ـ كما أعتقد ـ أن تدعى معرفة أفضل من معرفته. ولكنها قلما كانت تثير غضبه. لا أذكر إلا مرة واحدة رفع كوبًا من على "الطبلية" وقذفها به.

ليلة موته أصرت ألا أدخل الحجرة التى سجى فيها بعد أن حملوه من المسجد، وأن آكل شيئًا اسمه "طاسة الخضة" ـ تمر منقوع فى الماء، ربما قرئت عليه تعازيم أو أوراد. شغلت مع الرجال بتشييع الجنازة والجلوس فى سرادق العزاء ثلاثة أيام، فلم أكن أراها إلا للحظات، ولكننى لا أذكر أنى رأيتها باكية.

فى أيامنا كان الخط الفاصل بين الرجل والمرأة واضحًا وسميكًا، كان كتاب قاسم أمين "المرأة الجديدة" - وهو الذى رد فيه على من نقدوا كتابه الأول "تحرير المرأة" بين الكتب التى وجدتها فى ذلك الصندوق الأثرى قبل أن أدخل المدرسة الثانوية، ولابد أنه جعلنى أعدل من سلوكى الصبيانى إذا اتفق أنى سرت مع أمى فى الشارع، وقلما كان يحدث ذلك على كل حال. بعد موت أبى خيل إلىَّ أنها تريد أن تحل محله، وكنت أرى أنها بذلك تعدى علىَّ، وتنتقص من رجولتى. لقد نشأت طفلاً عاديًا فى بيت عادى لايعرف إلا القليل من المشكلات، ومع ذلك، فهل خلا باطنى من الصراع؟ هل مات فى داخلى ذلك الطفل الصغير الذى يلتفت ويتمتم بكلمات السباب لأهله؟ يخيل إلىَّ أننا نرث مركب الحب والكره من أبوينا. أنه يولد فينا. فى بعض الأوقات نتمنى الموت لأحدهما أو كليهما. وفى أوقات أخرى يتملكنا الخوف أن نعود إلى البيت فنجده احترق، أو يسقط على رءوس من فيه. هذه المشاعر المتناقضة كانت تنتابنى كثيرًا فى فترة المراهقة. هل كان موت أبى الفعلى نهاية لذلك الخوف الدائم؟ لا أدرى، ولكننى شعرت حين مات أبى، وقد بلغت الخامسة عشرة بالكاد، أنى أصبحت رجلاً فجأة. صحيح أنى كنت أشعر بشىء من الغيظ لأنى أعد فى نظر القانون "قاصرًا" وهى وصية علىَّ وعلى أختى، ولكننى أقول لنفسى إن ذلك لايعنى أكثر من ذهابها إلى المجلس الحسبى مرات قليلة. هل كان يرضينى أو يقلقنى الشعور بأنى أصبحت مسئولاً عن هذه الأسرة منذ الآن؟ ولكن أى معنى لهذه المسئولية إن لم أكن قادرًا على أن أكسب نقودًا؟

سنة ١٩٣٦ لم تكن سنة زواج. لم يكن يكفى أن أتعجل الرجولة لأنى أدركت قبل سنة أو سنتين (وقمت ببعض المغامرات الجنسية الطائشة)، ثم مات أبى وفجأة ووجدتنى مسئولاً عن أم وأختين صغيرتين، لم يكن لهذه الاعتبارات - المهمة فى نظرى - أى قيمة حينما يتعلق الأمر بالحصول على عمل، وكسب شىء من المال. صحيح أنى بدأت أعد نفسى جديًا خلال العطلة الصيفية الأخيرة، للانتقال من صفة الهواية إلى احتراف الكتابة، وكنت قد قرأت فى أحد أعداد "الهلال"، فى مكتبة بلدية شبين، استطلاعًا عن ثقافة الكتاب - أو نحو ذلك -

تضمن رأيًا للدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير "السياسة"، أن الكاتب لاغنى له عن إتقان لغة أجنبية واحدة على الأقل، وكنت بالمقاييس المدرسية متقدمًا جدًا فى اللغة الإنجليزية، فجمعت عددًا من الروايات والمسرحيات التى كانت مقررة على طلبة "البكالوريا" فى سنوات سابقة، أو على بعض الكليات الاجتماعية، دون اهتمام بأسماء مؤلفيها أو قيمتها الأدبية، فقد كانت ميرتها المهمة هى أن هوامشها تحمل شروح الكلمات الصعبة كما التقطها الطالب أثناء الدرس، وكانت هذه أسرع طريقة ممكنة لتحصيل ثروة لغوية مناسبة.

بالطبع كان من الحماقة أن أعلن هذه النيات قبل أن يتحقق منها شىء، وقبل أن تظهر نتيجة البكالوريا. وعندما أرسل إلىَّ أخى محمد - الذى كان يعمل فى ديوان الوزارة - بمجموع درجاتى أبدى اغتباطه، فقد حصلت على٥, ٦٤٪، وكان يعد بالفعل مجموعًا عاليًا، إلا أنه أقل مما أستحق، لأن أقوى مادتين عندى وهما التاريخ والجغرافيا حصلت فى إحداهما على ٢٧ من ٤٠ وفى الأخرى على ٢٨ من ٤٠ .

فلما مات والدنا وأصبح الهم همين، هم موته وهم تدبير مستقبلى بحيث يمكننى أن أعول الطرف الثانى، كان رأى أخى محمد، وهو الرأى الحصيف حقًا، أن أدخل معهد التربية، وكانت مدته ثلاث سنوات، إلا أن شهادته تعد شهادة عالية. صغر سنى لم يكن مشكلة، ففى الإمكان التغاضى عنه. ونظام التعليم فى المعهد داخلى، ففى الإمكان أن تبقى أمى وأختاى فى أشمون ريثما أنتهى من دراستى، الدليل على حصافة هذا الرأى أن صديقى محمود حمزة دخل معهد التربية وتخرج - فعلاً - بعد ثلاث سنوات وعين فى مدرسة عنيبة الابتدائية على الدرجة السادسة المخفضة (عشرة جنيهات ونصف تزاد بعد سنة أو سنتين - لا أذكر أيهما - إلى اثنى عشر جنيهًا المرتب الرسمى - فقط - المقرر لخريج الجامعة).

ولكننى كنت متلهفًا على دخول كلية الآداب، عند طه حسين، وكأنى سأجلس أمامه مباشرة، وسيفتقدنى إن تأخرت. وهكذا نشأ خلاف يسير، وأعلن أخى محمد - المثقل بالأعباء، ومعه الأستاذ، الذى لم يعد مكتبه يدر دخلاً كبيرًا - أن علينا أن نتحمل نتائج قرارنا.

أمات القرار المعلن، وهو دخول كلية الآداب، فلم تكن فيه مشكلة، والمجانية كانت شبه مضمونة، فقد كان حقًا مكفولاً لمن يحصلون على ٦٥٪ فى شهادة البكالوريا، وكان التجاوز عن نصف درجة فى المعهد الوفدى الشعبى، وفى عمادة طه حسين، وبمساعدة الأقرباء الكثيرين الذين أبدوا استعدادهم لمساعدتنا (لم يفعلوا شيئًا فى الحقيقة؛ لأن المجانية فى تلك السنة بالذات نزلت إلى ستين فى المائة أو أقل. وبهذه المناسبة كانت الـ٦٤,٥٪ تعنى الثانى والخمسين فى ترتيب الناجحين الذين تجاوز عددهم ألفين وخمسمائة فى القسم الأدبى).

وبقى الجانب الآخر غير المعلن من نواياى، وهو أن أجرب حظى فى الصحافة. ومادمنا فى سيرة طه حسين وكلية الآداب فلابد أنى كنت أفكر فى الصحافة الأدبية بالذات. وكانت مجلة "الجامعة" الأسبوعية التى كان لها بعض الرواج لما تنشره من قصص رومانسية ولشهرة صاحبها محمود كامل المحامى، قد أعلنت عن مسابقة القصة قبل سنة أو أكثر، وأرسلت إليها قصتين ترقبت ظهور إحداهما أسبوعا بعد أسبوع حتى يئست، وإن لم أيأس من المجلة نفسها إن استطعت الظهور أمام صاحبها. ورأيت مجلة جديدة اسمها "غريب" على اسم صاحبها محمد على غريب، وكان عبد السلام شهاب زميل خالى عبد الفتاح فى المطرقة قد انتقل إلى دار الهلال. حاولت فى كل هذه الاتجاهات أن أجد عملاً مأجورًا، وكنت أقدم نفسى على أنى قصاص ومترجم، ورست مراكبى، خلال سنتى ٣٧ و ٣٨، على الجامعة، ثم "الرسالة وابنتها" الرواية، هاويًا يترقب بطمع أشعبى أن ينقده أحد خمسين قرشًا على قصة مترجمة أو مؤلفة، ثم قرأت خاطرة لتوفيق الحكيم مما كان يكتبه فى "الثقافة" أو "الرسالة" بعنوان "تحت شمس الفكر" أو "من برجنا العاجى" ينصح فيها الأديب الناشئ ألا يستعجل النشر، وأن يفرض على نفسه أن يكتب ويمزق ما يكتب، مدة عشر سنين على الأقل، قبل أن يعرض ما كتبه على الناس.

ندمت على ماسلف من تجاسرى، وتهورى، وسوء تقديرى، وقلت آخذ بنصيحة توفيق الحكيم كما أخذت من قبل بنصيحة هيكل، ولاسيما أن الجمع بينهما يمكن

أن يكون مفيداً. ومع ذلك فقد حلمت أن أحصل من الترجمة على شيء من المال، وكنت "الفرقة القومية" فى تلك الأيام تقدم أعمالاً مترجمة، والشيخ عبد العزيز البشرى عضواً فى لجنة القراءة، وأخى محمد يعرف عبد العزيز البشرى كما فهمت من ثنايا كلامه، فترجمت مسرحية لجالسورذى، وأخرى لبرناردشو، وحدثت أخى عنهما، فلم أظفر بشىء، وغرقت فى بحور القراءة فلم أكتب إلا قليلاً، وأنفذت حكم توفيق الحكيم مع معظم ما كتبته فلم أستبق إلا قصة نشرتها فى مجلة الرواية سنة ٣٧ أو ٣٨ واحتفظت بها لأنى كنت أحتفظ بالمجموعة كلها، ثم سطا على المجموعة "صديق" أود ألا أذكره، فاحتفظت بهذا العدد بالذات؛ لأنه كان يحمل قبل قصتى مباشرة، أو قصة قرأتها لنجيب محفوظ، وياله من حوار كريم! أما قصتى نفسها فلم أحترمها، ولم أدخلها فى أى مجموعة لى. ولكنى أسفت لأنى لم أحتفظ ببحث كتبته فى تلك السنة نفسها (٣٧ ـ ٣٨)، وكان موضوعه "النسيب فى الشعر الجاهلى"، وله قصة، سوف أحدثك بها فيما أحدثك عن ذكرياتى عن كلية الآداب وأساتذتها بين سنتى ٣٦ و ٤٠، وآمل أن أسوق إليك عندها حديثاً رأينا ـ ولو إلى حد ما ـ ما يفعل كتاب السير الذاتية المحترمون.

ولكننا بدأنا هذه السيرة نوعاً من المناجاة الحميمة أو التفتيش عن الذات. وقد وقفت معك فى بداية مرحلة خطيرة جداً وهى مرحلة الصراع بينى وبين أمى بعد وفاة أبى. وأنت تعلم ولاشك أن ذلك الرجل فرويد أفسد علينا تفكيرنا فى أمهاتنا. لقد كان يتعامل مع مرضى ولسنا مريضين، لا أنت ولا أنا، نحن نعيش فقط على حافة المرض. معنى ذلك أننا يمكننا أن نقول ـ كما قال سوفوكليس على لسان جوكاستا قبل فرويد بخمسة وعشرين قرناً ـ إن التفكير فى الزواج من أمهاتنا خاطر سخيف، يمكن أن يحدث فى الأحلام، ولكن لايتصور فى الواقع. والذى حدث فى الواقع أنى أقمت نفسى مقام أبى، أقول لأمى مثلاً: لاتلبسى هذا لأنه لايليق، لماذا تركت خصلة من شعرك تظهر من تحت منديل الرأس؟ فلان هذا شخص أجنبى، أنا الذى أقابله ولاشأن لك بالموضوع. وكانت ـ بعنادها المشهور ـ تتحدانى فى أحيان كثيرة، فأثور ثورة جارفة ولا أعرف ماذا أصنع بها، وهى لاتشفق علىَّ فى غضبى. حتى أصبحت أؤمن أنها لا"تحبنى" بالمعنى الذى يمكن

أن أعرفه للحب، ولكنها تتملكنى كقطعة منها. وإن لم تستطع أن نتجنب كلانا الآخر، فكلامنا ـ غالبًا ـ حاد متوتر.

من مراقبتى لأحوال هذه السيدة أيقنت أنها تريد، فى أعماق نفسها، أن تخصينى. كانت تراقبنى بدقة حين يضمنا اجتماع عائلى مع قريبات يناهزننى فى السن. وكان الاحتشام واجبًا حتى فى طفولتى. وأعجب من ذلك ما أخبرتنى به إحدى أختى من أنها كانت أثناء سنوات الجامعة تتنكر بالملاءة اللف كإحدى بنات البلد وتخرج إلى شارع الجامعة تترقب ساعة خروجى من البوابة (كانت بوابة وحيدة فى ذلك الزمان) لترى: هل أمشى مع بنات؟ كان هذا همها الوحيد. كانت لديها دائمًا حججها المعقولة: ألاأنشغل عن الدراسة بالجرى وراء البنات. وبعد أن تخرجت وتوظفت، أصبح همها مراقبة الجارات، بالإضافة إلى بنات الأسرة، وأصبحت حجتها أننى يجب أن أزوج أختى أولاً. ولكننى كنت أعرف أن هذا كله كذب، أنها تريد فى الحقيقة أن تخصينى.

هل كل الأمهات هكذا؟ لا أدرى. صدقنى، أنا أكتب هذا لأنى ـ بالضبط ـ لا أدرى. لم تستطع أمى ـ بالطبع ـ أن تحبسنى فى قمقم. كانت لها غفلات وكانت لى نزوات، ولكننى لم أهزمها الهزيمة الساحقة إلا حين تزوجت بنت أختها، وأصبحت أستطيع أن أدخل بها إلى حجرتنا لنفعل ما يحلو لنا، مع وجود الأم والأختين فى البيت.

ولكن هذا الانتصار المتأخر ـ كنت قد بلغت السابعة والعشرين حين تزوجت ـ لم يشفنى شفاءً تامًا من هزيمة أوقعتها بى قبل عشر سنين، أى فى الفترة التى أحدثك عنها الآن، والحق أن ظروفًا غير متوقعة ساعدتها على ذلك.

اتفقت مع طالبين على "لقاء" بامرأة مستأجرة فى شقتهما بالجيزة، وكان يشاركهما فيها طالبان آخران. تقدم صاحبها الأول بحق الأقدمية، وأخذ وقته كما شاء، وحين خرج زعم أنها تمنعت بعض الوقت. تقدمت بعده، وبينما كنت على عتبة البيت أهم بالدخول إذا بطرق شديد على الحائط الثالث يستعجلنى. لعنته

ولكنى لم أستطع أن أواصل. شعور بالاشمئزاز جعل الأمر مستحيلاً. رجعت وأنا على الباب. خرجت دائخًا. سألنى الغبىّ: هيه؟ قلت لم أفعل شيئًا. سألوا المرأة. قالت: لابأس به ولكنه انصرف عندما كان يجب أن يقدم. بعدها تذكرت الآية: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ (سورة يوسف، الآية:٢٤). وسخرت من نفسى: برهان ربى... فى طرقات ذلك الحيوان؟ لايمكن. أنا لم أر شيئًا، وكان يمكننى أن أستمر ولا أبالى، فلماذا توقفت؟ لماذا كنت كمن صحا من حلم؟ لماذا انهارت عزيمتى؟ لم أر صورة أمى، ولم أسمع صوتها، ولكننى شعرت شعورًا مبهمًا بأنها جعلت كل نساء الأرض محرمات علىّ. وكان علىّ - فيما بعد - أن أهزم هذا الشعور، وهزمته مرات ومرات حتى كدت أنساه، ولكنه كان يطل برأسه أحيانًا، وفى أحرج الأوقات، ليقطع علىّ لذتى.

هل كان من الضرورى أن أكتب هذا الكلام؟ وهل استطعت أن أرسم صورة صادقة ودقيقة، بدون مبالغة، وبدون حذف، وبدون إضافة متأخرة؟ومن أجل من أكتبه؟ من أجلك أنت، يابنى الوحيد المجهول، الذى ولد معى يوم أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدتهم على أنفسهم. أكتبه لك عساك تفهم ما لم أحط به خبرًا.

صديقى الصدوق فى هذه الفترة لم يكن من بنى آدم. إذا أردت أن تقول إنه جنى فلن أوافقك ولن أعارضك. فأنا لا أكتب الآن بحثًا فى الأنثروبولوجيا. أنا - كما اتفقنا - لا أحدثك إلا عن وقائع وانطباعات. وإذا تركت فى نفسك بعض التساؤلات فلاحيلة لى فى إزالتها. يمكنك أن تنساها. ولكنى لأحدثك عن هذا الصديق كيف كنت ألقاه، وأين ومتى، فلا بد أن أحدثك أولاً عن انتقالنا لسكنى القاهرة. كانت أمى - بعنطزتها الموروثة عن جدها - قد اشترت "طقم صالون" بخمسة جنيهات، قبل أن نغادر شبين الكوم بأشهر قليلة، انتقل معنا إلى أشمون، ثم لما تقرر أن أدخل كلية الآداب وأصبح الانتقال إلى القاهرة واجبًا فارقت الأم صالونها بأن باعته إلى أخيها ناظر المدرسة الأولية. وأوصى الأخ صديقًا له يقيم فى بين السرايات أن يبحث لنا عن مسكن مناسب، انتقلنا إليه بكراكيبنا المكونة من سريرين حديديين والكنبات الثلاثة إلى جانب الطبلية وسحارة العيش. لم يكن المسكن الذى انتقلنا إليه مناسبًا جدًا وإن اتسع لأشخاصنا الأربعة وكراكيبنا القليلة، فقد كان معتمًا يخنق الأنفاس. شقة فى بيت ذى ثلاث طبقات وخمس شقق، لأن الطابق الأرضى فيه دكان لابن صاحبة البيت يطل على الطريق، والأم وابنها يسكنان فى الجزء الباقى. لم أكن أرى حنفى ابن أم حنفى يبيع شيئًا. كان يجلس فى الدكان فقط وفى يده مجلة. أديب على قد حاله، كان أول من حدثنى عن القصص التى بدأت أترجمها وأنشرها فى "الرواية".

نقيم نحن فى الطابق الثانى ومعنا فى الشقة المجاورة عسكرى بوليس مع زوجه العروس، التى كنت ألمحها أحيانًا إذا جاءت لتستشير أمى فى مسألة

عويصة من مسائل الطبيخ. بالطبع كان محرمًا على أن أراها. صديق خالى كان له بيت قريب يطل على سور بيرة الأهرام. البيت من طابق واحد ومساحته لاتتجاوز ستين مترًا. تفاهمت أمى مع صاحب البيت على أن تقرضه ثلاثين جنيهًا ليقوم ببناء الطابق الثانى، يأخذ منه حجرة لنفسه كى يجعلها صالونًا ويترك لنا الصالة والحجرتين الباقيتين. الكبيرة من الحجرتين كانت تطل على الشارع وفيها السريران الحديديان، والصغيرة لها شباك على السلم، وفيها الكنبات الثلاث ومكتب عتيق لا أعرف نسبه ولا تاريخه، ولكنه كان معى منذ المرحلة الابتدائية. هذه هى حجرتى التى لا أكاد أفارقها إلا النوم، حيث كنت أنفرد عادة بسرير وتنام أمى والبنتين الصغيرتين على السرير الاخر. هل كانت أمى تشاطرنى سريرى أحيانًا؟ أو أختى الصغرى؟ لماذا لا أتذكر ذلك بوضوح؟ أظنه كان خروجًا عن القاعدة، وكان يضايقنى. من حقهن طبعًا أن يجلسن فى الصالة بشرط ألايشوشن علىَّ فى حجرتى. وقلما كن يفعلن، ولكن التشويش كان يأتينى أحيانًا من الطابق السفلى؛ حيث كانت الجارة "أم حسن التركية" تسب عبد المحسن ابن صاحب البيت؛ لأنه تجرأ وعاكس عروس ابنها حسن. كان لقب "التركية" لا يعبر عن موقف اجتماعى معين، وإن كان كل واحد فى حاله، وحسن ابنها هذا لم أره مرة واحدة، ولا عروسه من باب أولى. غير أن اللقب كان ضروريًا للتمييز بينها وبين الجارة الثانية التى كان اسمها أم حسن السمرا. فى حجرتى هذه تمتعت بكل ما أتمناه من عزلة، كما تمتعت لأول مرة فى حياتى بمصباح كهربائى، فقد شمل الاتفاق على الأجرة - وهى ستون قرشًا - مصباحًا واحدًا، ٤٠ واط، يتدلى فوق مكتبى الملاصق للشباك. لم يكن يقطع علىَّ عزلتى إلا زيارة قريب يتحتم علىَّ أن أجالسه وأبحث عن كلام يمكن أن أقوله حتى لا يشعر بالخجل.

كان صديقى يغيب عنى باليومين والثلاثة، ثم أراه فجأة على الشباك. ينظر إلىَّ بعيونه الخضر. نتحاور بلغة نفهمها نحن - الاثنين - يقول لى: كيف حالك؟ أقول: الحمد لله. يقول: مازلت حيث رأيتك آخر مرة. ألاتفعل شيئًا غير القراءة والكتابة؟ أقول له: قسمتى. يزداد عطفًا وحنوًا ويقول لى مواسيًا: أحيانًا أتمنى

لو أجلس هكذا مثلك، بعيدًا عن الناس والكلاب، وحتى القطط أيضًا. أقول له: أعرف أنكم تتعاركون أحيانًا كالآدميين يقول: الحياة صعبة. أقول: أنت تخفى عنى شيئًا يشيح برأسه. أقول له: سوف تنساها، وتصاحب غيرها. يقول: كلهن سواء.

إذا كان عندنا لبن، أحضر له طاسة صغيرة. يلعق اللبن بهدوء ومجاملة. يلبث قليلاً ريثما يجيل بصره فى المكان. يقول لى: لم يتغير شىء. هكذا أنت. سأتركك مطمئنًا. أقول له: صحبتك السلامة.

لا أزعم أنى اكتفيت من الأصدقاء بذلك القط، سواء أكان قطًا حقيقيًا أم جنيًا متخفيًا فى جسم قط. هو أيضًا كان له عالمه الخاص، وكانت صداقته لى ومضات صغيرة فى ظلمة روحى. ولكننى بحثت دائمًا عن الصداقة بين بنى البشر. يروون عن بل كلنتون - الرئيس الأمريكى الذى انتخب لولاية ثانية، كلمة إن كان قالها حقًا فلست أدرى كيف يمكن أن يكون تعليق أصدقائه عليها: "إذا أردت أن يكون لك صديق فى واشنطن فعليك أن تقتنى كلبًا"، كثيرًا ما أتذكر نقاشًا بينى وبين محمود حمزة، أصفى نفس عرفتها فى حياتى، حول معنى الصداقة. طلب منى مرة تعريفًا للصداقة (كماطلب منى قبل ذلك أو بعده، لاأدرى، تعريفًا للأسلوب) فقلت له: "الصديق هو من يمكنك أن تفضى إليه بسرك" فهز رأسه نفيًا وقال: " الصديق هو من يعينك وقت الضيق". بدا لى تعريفه نفعيًا، ولم أدرك أنى قدمت له تعريفًا ذاتيًا، مزاجيًا، يمكن أن يجعلك تجرى وراء سراب الصداقة طوال عمرك، ولا تجد عنده شيئًا، أو تجد نفسك فى حوار مع قط على قاعدة شباكك. من حكم العرب حول الصداقة والصديق لم أعرف - حتى الآن - كيف أختار؟

هل أختار قول نابغة بنى ذبيان:

ولست بمستبق أخًا لا تلمه ... على شعث، أى الرجال المهذّبُ؟

ومثله قول بشار بن برد:

إذا كنت فى كل الأمور معاتبًا ... صديقك، لم تلق الذى لاتعاتبه

فعـش واحـدًا أوصـلْ أخاك فإنه   مقـارفُ ذنـبٍ مـرة ومجـانبـه

أو أقول مع المتنبى:

وآنَفُ مـن أخـى لأبـى وأمـى   إذا مـا لـم أجـده من الكـرام

* * *

ولكن هذا "الصديق" لم يدع لى مجالاً للتردد. عرفته فى آخر مراحل الدراسة الثانوية. كان ـ كما ظهر من أمره ـ يعد نفسه ليكون كاتبًا. ومن عجيب أمره فى هذا الباب أنه أبى أن يكتب على كراسة الإنشاء، كما يكتب الطلاب جميعًا، "إنشاء عربى" واستبدل بها "كتابة عربية" وقد لاحظ كثرة ترددى على مكتبة البلدية، فقلدنى فى ذلك، ثم دخل معى كلية الآداب، واختار مثلى قسم اللغة العربية. وكنت دائمًا متقدمًا عليه، إلى أن تغير الحال بفضل نظام اسمه نظام الامتياز، وأستاذ اسمه أحمد الشايب، وسيأتيك نبؤهما بعد حين فأصبح "الصديق" ـ ابتداءً من السنة الثالثة ـ طالبًا "ممتازًا"، وأصبحت أنا طالبًا عاديًا. فاصطفى صديقًا ثالثًا، يحلو له، حين نجتمع نحن ـ الثلاثة ـ أن يفاوضه فى دروس الامتياز التى لا أحضرها. احتملت ذلك سنة، عملاً بوصية النابغة وبشار، إلى أن أقدم على فعلة قبيحة لم أستطع أن أغتفرها له. كان طه حسين يدرس لنا الشعر الأموى فى السنة الثالثة، وطلب منا أن نعد بحثًا فى تحليل رائية الأخطل:

خف القطين فراحوا منك أو بكروا   وأزعجتهم نوى فى صرفها غير

أجهدت نفسى فى تحليل القصيدة، واثقًا أن طه حسين إن لم يقرأها بنفسه، فلابد أن يقرأها أحد مساعديه. ولبث "الصديق" متكاسلاً إلى أن اقترب موعد تقديم البحث، فسألنى أن أعيره بحثى "ليسترشد به" كما زعم. ولا أذكر الآن كيف وقع بحثه بين يدى. هل بلغ من وقاحته أنه اطلعنى عليه بنفسه؟ هذا غير مستبعد أيضًا. فإذا له منقول عن بحثى بنصه، وقد أضاف إليه بضعة أسطر فى الختام، بدأها بقوله: "بقيت كلمة عن النص الذى رجعت إليه فى دراسة هذه القصيدة...."

ولم يكن ثمة نص غير ذلك الذى نشره لويس شيخو فى "شعراء النصرانية"، ولكنها إضافة يمكن أن تقنع من يقارن بين البحثين أن بحثه هو الأصل، وبحثى هو المنقول المسروق.

وتذكرت أنه استعار منى، قبل سنة أو سنتين، حقيبة جلدية متوسطة، تصلح للكتب أو لسفرة قصيرة، وادعى أنها ضاعت، ثم سمعت من زميلنا عبد الحميد يونس قصة أعجب، وهى أنهما التقيا فى مجلس، وكان من عادة الكثيرين إذا جلسوا أن يتخففوا من الطربوش بوضعه على منضدة أو نحوها، وكذلك فعل عبد الحميد، فلما هم بالقيام، وكان ذلك الإنسان قد سبقه، مد يده ليتناول طربوشه فإذا به شىء آخر تحسسه عبد الحميد فوجده باليًا ظاهرًا وباطنًا، فعلم أن صاحبنا غافله وأبدل الطربوشين. كان عبد الحميد يونس ـ رحمه الله ـ ضريرًا، وشجاعًا إلى درجة أسطورية فى تحمل محنته، ولكنه كان يألم ألمًا شديدًا لمثل هذه الحادثة، وقد سمعتها منه مرات.

واحتجت مرة إلى مال، وكان صاحبنا هذا يزعم أن له فى ذمة شخص آخر مبلغًا كبيرًا، وأنه يستنجزه إياه، فعلمت أنه يريد أن يكسب حمدًا ولايبذل إلا وعودًا، وجاء الفرج من الله بلا فضل من مخلوق، بل كنت أنا صاحب اليد العليا لأنى خلصت زميلاً من ورطة غير هينة. ومازال ذلك الصديق يلاحقنى بوجهه الصفراوى إذا حضر، وخطاباته الطويلة المنمقة إذا رحل (كتابة عربية!) حتى سألنى قرضًا صغيرًا فسارعت بإعطائه إياه، ثم تعمدت ألا أطالبه، وطال الزمن فجاء يعتذر، فوبخته ولم أقبل منه رد المبلغ. ولم يكن ذلك هو آخر العهد به، ولكن الزمن تكفل بالباقى.

معذرة صديقى القارئ عن هذا الاستطراد، ولكنه شىء جرنا إليه الحديث عن فضائل القطط والكلاب.

هكذا انزوينا فى "بين السرايات" لنكون قريبين من الجامعة، ولأن السكن فيها أرخص من السكن فى الجيزة، ولم يكن مظهرها يختلف كثيرًا عن الأماكن التى سكناها فى شبين الكوم أو حتى فى أشمون، ولكن الروح مختلفة إلى حد بعيد. الناس هنا كل واحد فى حاله، والغرائز نائمة أو مكتومة. هكذا الشأن فى المستعمرات الصغيرة التى ينشئها الفقراء فى أطراف المدن أو فى الجيوب التى يخلفها الأغنياء وراء قصورهم وعماراتهم.

التكوين السكانى لمدينة القاهرة متنوع إلى درجة مذهلة، لا أتكلم عن قاهرة اليوم فقط، وهى عوالم كثيرة متداخلة كأنها عصبة أمم، بل عن قاهرة ١٩٣٦ التى كانت تضم - مثلاً - منطقة اسمها "عزبة الورد" بين شبرا والسكاكينى، أغلب سكانها نازحون من المنوفية، ولاتزال فيها بقايا من الأرض الزراعية التى تجعلها شبيهة - إلى حد ما - بقرى المنوفية. ولكن "بين السرايات" كانت شيئًا مختلفًا. لايجمع بين سكانها إلا مستواهم الاقتصادى المتواضع. فهم إما صغار الموظفين والعمال فى الجامعة أو فى مصنع بيرة الأهرام، أما السكان العابرون من طلبة الجامعة فهم لايضيفون شيئًا إلى الصبغة العامة لهذه المستعمرة الصغيرة، بعكس الجيزة التى تجد فيها عددًا كبيرًا من الدكاكين وبعض المقاهى والمطاعم، وغير قليل من القوادين والعاهرات.

ويل للفقراء. كلما عششوا فى مكان قريب من أشغالهم المتواضعة تأفف الأغنياء من جوارهم أو حلا المكان فى عيونهم فأزاحوهم إلى مكان أبعد. سيأتى

وزير أوقاف فى وزارة الأغلبية - سنة ٤٢ أو ٤٣ - ويحول الأراضى الزراعية الخصبة الممتدة بين كوبرى الزمالك والكوبرى الأعمى إلى أرض للبناء. جريمة لم يقدم على مثلها السلطان سليم نفسه. والناس على دين حكوماتهم. سيتحول كل ما هو شرقى السكة الحديد إلى ڤيلات وعمارات، وينتهز أصحاب الأراضى الزراعية غربى السكة الحديد هذه الفرصة فيقسمونها قطعًا صغيرة يبيعونها بأعلى الأثمان للفقراء الذين طردوا من مساكنهم البسيطة فى بين السرايات. وهكذا تنتقل بين السرايات من حال إلى حال، وينشأ وراء السكة الحديد عالم جديد بالاسم الذى أطلقه عليه القاهريون "الصين الشعبية".

أما فى الثلاثينيات فكانت بين السرايات وجارتها "بولاق الدكرور" منطقتين فقيرتين تقبعان خلف فيلات الدقى وعلى بعد كاف من القصور القائمة على النيل (بعد العمارات الشاهقة لاتزال "كرمة ابن هانئ" تذكر بشاعرية المكان فى ذلك الزمن البعيد). أيامها كان الشاب "المكبوت"، والذى لم يكن فى قلبه ذرة من الحقد على أحد، يقوم بنزهته اليومية - وحيدًا فى معظم الأيام - بين كوبرى عباس والكوبرى الأعمى - الذى كان يسمى أيضًا كوبرى بديعة نسبة إلى بديعة مصابنى صاحبة الصالة المشهورة على الجانب الغربى منه - وهناك قبل كوبرى عباس بڤلتين أو ثلاث يسمع أنغام بيانو ويرى نورًا ناعمًا ينبعث من إحدى الشرفات فتسرى فى نفسه بهجة لاسبيل إلى التوفيق بينها وبين سعار الجنس الذى يؤرقه أحيانًا. سأقرأ لصلاح عبد الصبور فيما بعد - فهو يصغرنى بنحو عشر سنين - "جارتى مدت من الشرفة حبلاً من نغم". هل أصبح من الممكن - فى زمنه - أن يحلم بأنه روميو وتلك التى تعزف فى الشرفة جولييت؟ فى زمنى أنا، فى الثلاثينيات، لم تكن الأحلام تجرؤ على أن تمد حبالاً ولو كانت من نغم. ألم أكن أخجل، وأنا لن أتجاوز العاشرة إلا بقليل، حين أخرج من حارتنا لأعبر شارع البوسطة فى شبين، وأدخل - شبه مرغم - إلى الفيلا التى كان يسكنها "عمى أحمد بك داوود" لأتناول الغداء مع أسرته، وأبقى قليلا مع أولاده وبناته - لابد من هذا - وأقصى مدى من الألفة وصلت إليه مع البنات أن صغراهن - وهى تقاربنى

فى السن - صنعت بفهما "زقزيقة" من أشلاء بالونة وفقعتها على جبينى وهى تقول - مع ابتسامة حلوة - "على شان تعيش"؟

لم يكن من السهل أن أوفق بين هذا العالم النظيف وعالم الحارة التى لم يكن يمر عليها يوم لانشهد فيه مباراة أو أكثر فى "الردح" بين الجارات. وإذا كان من الطبيعى أن يتضمن الردح تلميحات تمس الشرف (لايمكن أن نطالبهن بالترفع عن أشياء ورد مثلها فى شعر جرير والفرزدق) فكيف أستسيغ هذا الغزل الجنسى الفاضح الذى يوجهه بائع سريح من سكان الحارة، وبصوت عال وكأنه ينادى على بضاعته، إلى جارته الفتاة البيضاء - المفروض أنها عذراء - ولماذا هى دون أى واحدة غيرها من بنات الحارة أو نسائها؟ أفلام ذلك الزمن التى نراها الآن فى التليفزيون لاتعطيك صورة صادقة عن أخلاق الحارة. إذا كان هذا الغزل البذىء نوعًا من الدعابة، فلماذا يخص بها الشاب الشهم جارته اليتيمة التى ليس لها رجل يحميها؟

تجربتى المحدودة لاتسمح لى أن أعمم، ولكننى فى حدود معرفتى ببعض حارات مصر ذوات التاريخ العريق، ألاحظ أنها موبوءة بالجنس، وكل حارة تتهم الحارة الملاصقة لها. بالطبع يمكن أن يكون الأمر كله تشنيعًا، على طريقة جرير والفرزدق أيضًا، فالأدلة - حقًا - غير كافية، مجرد جنين او اثنين وجدا على رأس حارة من الحارتين، فاتهمت كل حارة الحارة الأخرى.

"بين السرايات" كانت أهدأ. فيما عدا شتيمة أم حسن التركية للفتى عبد المحسن لم أسمع شيئًا يخدش الحياء، ولم تكن النسوة يجلسن على عتبات البيوت ولايسلبن وقتهن بمباريات الردح. البيوت مغلقة على من فيها والله أمر بالستر.

كان البيت الذى سكناه ثلاث سنوات يحتل الطرف الشمالى الغربى من ذلك المربع الصغير الذى اسمه "بين السرايات". أمامنا سور بيرة الأهرام وإلى جهة الشمال أرض زراعية إذا سلكت مدقًا فى وسطها أصبحت فى بولاق الدكرور. وهى قرية مثل كل القرى، لها ولى مثل كل القرى، ووليها، له مولد مثل كل الأولياء. أذكر أنى ذهبت إلى هذا المولد ليلة ولم تكن تضيئه إلا أنوار ضعيفة،

ووقفت لحظات أمام ساحة صغيرة ورجل متوسط السن نحيل القوام ذى شعر طويل مرسل على كتفه، ينشد وهو يتراقص. لم أر حلقة ذكر كتلك التى كنت أراها فى ساحة الغمارى. مازال الغموض يأسرنى، ولكنى لم أعد أطيق الجهل والخرافة. ربما كان ذلك وجهًا آخر لتمردى على سيطرة أمى التى كانت تصلى الفروض فى أوقاتها وتصوم وتستفتى أبى فى أمور العبادات ولكنها وثنية حتى النخاع. تحرص على حضور مولد السيد البدوى وتذهب يوم شم النسيم مع نسوة من أهل أشمون إلى ولى بين الحقول يسمينه سيدى الغريب. يستقبلهن خادم الشيخ الذى ينتظر هذا اليوم كل سنة ليأخذ النذور المعتادة. لم يكن هناك إلا الضجة التى تنشأ كلما اجتمع عدد من النساء فى مكان. والكلام عن كرامات الشيخ الغريب. معرفتى بمدينة القاهرة تبدأ من ضرائح الأولياء، كنت أشعر أنى محبوس فى مكان ضيق يتوسطه مكعب بقماش أخضر تحت زخارف نحاسية لامعة، النساء يخاطبن هذا المكعب فى ضراعة والحارس يأمرهن ألا يطلن الوقوف. منظر آخر أشد إبهارًا رأيته معها من شباك بيت عمها. موكب من الرجال ينوحون ويجرحون أنفسهم أو يضربون صدورهم بأحجار. قالوا لى هؤلاء شيعة وهذا يوم حزنهم؛ لأن سيدنا الحسين قتل فى مثل هذا اليوم قبل زمن بعيد، بعيد جدًا.

صنعت قاهرتى أنا. لم تكن شيئًا كبيرًا. أهى التى حدثتك عنها، والتى كنت مواظبًا عليها فى فصل الصيف خاصة، فما عدنا نترك بيتنا صيفًا.

لزمت أمى دارها فى السنة الأولى بعد موت أبى، كما يليق بزوجة فى سنة الحداد، فمن أراد أن يطمئن على أحوالها فليأت إلى زيارتها. بعد ذلك كانت تزور أقاربها أحيانًا وترجع فى اليوم نفسه. وأنا "البراوى" لا أزور أحدًا. مرة واحدة نجحت فى قلقلتنا إلى بيت خالى فى كوبرى القبة؛ حيث مكثنا يومين أو ثلاثة، ومرة ثانية تآمرت مع خالى الذى فى القاهرة والآخر الذى فى الإسكندرية لنقضى كلنا أيامًا عند هذا الأخير، طالت إلى قرابة الشهر. سافرت وحدها إلى الإسكندرية مع وصية لخالى الذى فى القاهرة أن ألحق بها مع الأختين، وكان ذلك سببًا من الأسباب التى لم تنقطع لسخطى الدائم عليها.

قاهرتى أنا ـ صيفًا وشتاءً ـ كانت تتألف من الكلية ومكتبة الجامعة الملاصقة لها، ودار الكتب فى باب الخلق، اذهب إليها محملاً بالكتب وأعود محملاً بكتب أخرى، راكبًا فى بعض الأحيان، ماشيًا فى معظم الأحيان. مقر مجلة الجامعة فى شارع نوبار، بيت قديم ذو فناء واسع، فى جانب منه كشك خشبى تتم فيه عملية الجمع (أما الطبع ففى مكان آخر)، ثم مقر الرسالة والرواية فى أول شارع عبد العزيز من جهة العتبة الخضراء، ومدخل العمارة ممر فى آخره محل صغير لبيع السندوتشات (ذلك قبل أن تصبح للرسالة عمارة ومطبعة متواضعتان فى عابدين بالقرب من الميدان).

ورغم فشلى فى الحصول على عائد من أعمالى الأدبية، فإن حياتنا لم تكن صعبة. نعم، كنب نحسب حساب القرش، ونخاف من المستقبل. ولكن أبى كان قد باع نصف فدان قبل أن يموت، ولم نصرف إلا جزءًا يسيرًا من ثمنه على الجنازة والانتقال إلى القاهرة، بدليل أننا استطعنا أن ندفع قسمًا من تكاليف بناء شقة أفضل من التى كنا فيها. وكان بيت أشمون معروضًا للبيع وثمنه يكفينا سنتين أخريين على الأقل. ما يكفى لتخرجى، وعندها يصبح الحصول على عمل أمرًا طبيعيًا، وضروريًا أيضًا.

زارنا الأقارب جميعًا وأطمأنوا على أحوالنا. إخوتى وأقاربى من جهة الأم. أخى محمد لم يلمنى على اختيارى كلية الآداب بعد أن أصبح يقرأ لى فى الرسالة والرواية. وعمى أحمد بك داود زارنا بعد أن تعب كثيرًا فى معرفة مكان المنزل، كان قد أصبح فى المعاش، لم يحمل إلينا هدية ولكنه وضع نقودًا فى يد أمى، هو عمها أيضًا على كل حال. كان حرص أمى على إظهار أننا مستورون، يعادل حرصها على إظهار بطولتها فى إدارة شئون حياتنا. ولم أكن أجد بأسًا بأن أتركها تربح هذه النقطة، لولا أنها كانت تكرر علنًا، وتنقل رواية الآخرين أيضًا، ويعلم الله إن كانت صادقة أو كاذبة، أننى يجب أن أحفظ جميلها طوال العمر.

كانت السنة الأولى فى كلية الآداب مثيرة وممتعة بقدر ما كانت الدراسة نفسها سهلة. فقد كانت كليات الجامعة أيامها (جامعة واحدة تسمى الجامعة المصرية، لم ينشأ لها "فرع" فى الإسكندرية إلا فى أوائل الأربعينيات) كافية لاستيعاب الحاصلين على البكالوريا، دون أن تكتظ المدرجات بالطلاب. كان المتفوقون من القسم العلمى يقبلون فى كليتى الطب والهندسة (كما هى الحال الآن) تليهما كليتا الزراعة والطب البيطرى، ثم كلية التجارة التى كانت تقبل طلاب القسم الأدبى أيضاً. وتبقى كليتا الآداب والحقوق مفتوحتى الأبواب لكل الطلاب الناجحين فى البكالوريا، ولو كانوا حاصلين على أدنى الدرجات. قلة الأعداد كانت تسمح بأن يتنقل الطالب ومعه أوراقه و ولي أمره بين الكليات حتى يجد كلية تقبله، فلم يكن الأمر يحتاج إلى مكتب تنسيق. وبما أن كلية الآداب كانت تقبل العلميين، فقد رئى من الضرورى أن تكون السنة الأولى تمهيدية وأن يبدأ التخصص من السنة الثانية. ولا تزال هذه القضية موضوع ترد واختلاف بين كليات الآداب التى تكاد تبلغ العشرين الآن.

المهم أن القادمين إلى كلية الآداب من القسم الأدبى كانوا ينعمون بسنة تخف فيها أعباء الدراسة، فضلاً عن أن نظام الدراسة نفسه كان يمتاز بكثير من الحرية إذا قيس بالنظامْ الصارم المعتاد فى المدارس الثانوية، فلا باب ولا بواب ولاطابور صباح ولاجرس مهول يدق للحضور والانصراف وبدء الحصة ونهاية الحصة وبدء الفسحة ونهاية الفسحة ولا.. ولا.. إنما هى أجراس لطيفة مثبتة فى الجدران ترن بصوت كصوت جرس المنبه قبل نهاية الساعة بعشر دقائق وعند

تمام الساعة معلنة انتهاء محاضرة وبدء محاضرة، والطالب يحضر أو يغيب ولايسجل غائبًا إلا إذا كان الأستاذ من المتشددين فى النظام والفصل صغير العدد. (لاأدرى لماذا يسمون هذه الفصول "سكاشن" حتى هذه الأيام، مع أن السكشن ليس من قبيل "الآلات والمخترعات" التى تحدث عنها حافظ إبراهيم، ولا أدرى لماذا تظل لغتنا الجميلة عاجزة أو مستسلمة لا فى باب العلوم والمخترعات فقط، بل فى باب الحياة العامة أيضًا. هل تظل "جميلة" فقط حين نشرب معها الشاى، أو نلمس أناملها الرقيقة ونحن ننظر إلى غروب الشمس.. ما رأى صديقى فاروق شوشة؟) المحاضرات العامة كانت تشغل معظم الوقت ومعظم الاهتمام. الدفعة كلها خمسمائة طالب، يسعهم مدرج كبير واحد وتبقى الصفوف الأخيرة خالية، أما الصفوف الثلاثة الأولى فمحجوزة للطالبات. ولا بأس بأن نؤخر الحديث عن الأساتذة قليلاً لنتكلم عن الطالبات أولاً، فمعظمنا جاءوا من الأرياف أو من الصعيد، لم يروا فى حيانتهم بنات بهذه الأناقة وهذا الجمال، وأحيانا لاتتجاوز المسافة الفاصلة بين الواحد والواحدة مترين أو ثلاثة أمتار. المسافة الحقيقية فى الداخل، القليلون منا تجرءوا، حتى فى تلك السنة الأولى، واستعاروا كراسة محاضرات وردوها فى اليوم التالى، بعد أن سهروا يتأملون جمال الخط.

كانت كلية الآداب مشهورة ببناتها. يسميها الحاقدون والحاسدون: كلية البنات، لأن كلية الحقوق ليس فيها إلا عدد قليل جدًا منهن وكلية العلوم وكلية التجارة كذلك، وكلية الزراعة لاتقبلهن سدًا للذرائع، والطب البيطرى مثلها، والطب هناك فى آخر الدنيا، لها عالمها الخاص، وبعض هذه الكليات ضمت متأخرة إلى الجامعة، متخلفين عن الطلائع الأولى فى معركة تحرير المرأة. المهم أن كلية الآداب كانت تشهد وجوهًا غريبة معظمها قادم من كلية الحقوق، ينحشرون فى المحاضرات العامة، يمكن أن يطردوا فى السكاشن، فسّاق، لا يقنعون بالنظرة الأولى، ولكنهم - على كل حال - يكتفون بالنظر.

فحركة تحرير المرأة، حتى تلك الأيام، كانت تحرص على الاحتشام. أول مرة رأينا فيه طه حسين أمامنا فى المدرج حين دخل وفى ذراعه سكرتيره فريد

شحاتة، فتوقف المحاضر، وقال طه حسين بفرنسيته المحكمة وإلقائه الذى لايعوزه النغم فى عربية أو فرنسية، ولو كانت جملة بسيطة كهذه:

LES JEUNES FILLES SANS CHAPEAUX

(الفتيات اللاتى يكشفن رءوسهن)

لم ينتظر حتى تقف الطالبات المذنبات، بل اكتفى بهذا التنبيه وهمس للأستاذ بكلمات، ثم خرج.

وفى السنة التالية رأينا على لوحة الإعلانات. نص قرار من عميد الكلية بفصل الطالب فلان مدة أسبوعين؛ لأنه ضايق طالبتين من زميلاته.

أعود إلى انبهارنا بالطالبات فى تلك السنة الأولى. بالطبع لم يكن سواسية كأسنان المشط. أشدهن اجتذابًا لأنظارنا المسهمة سمراء فارعة الطول تترك شعرها الغريز مرسلاً (SANS CHAPEAU) حتى يصل إلى خصرها. شقراء صغيرة الرأس والجسم مثل قطة جميلة، أميل إلى القصر والنحول مثل الفرنسيات، فى وجهها بثرة أو بثرتان من "حب الشباب" نتجاوز عنهما باعتبارهما حقًا من حقوقها. ربما وقفت إحدى هاتين الفتاتين لحظات أمام الصف الأول تكلم زميلة لها، فنملأ عيوننا منها. لاتخلو الصفوف الأولى من جميلات أخر، ولكنهن يتهيبن مثل هذه الوقفة. أما التى جعلت الكلية كلها تقف على رجل، ومعها كلية الحقوق فى الحوش القبلى، فكانت فتاة تبارك الخالق فيما خلق. أول ما رأيتها شبهتها بصورة فى كتاب السنة الخامسة الثانوية لمارى انطوانيت. براءة ملكية ناعمة لايخطر ببالها أنها ملكة، ولأن فى الدنيا جياعًا ومحرومين، ثم راجعت نفسى فعوذتها بالله من الشيطان الرجيم ومن مصير كمصير مارى أنطوانيت. وقلت أيضًا: حقًا أنى لم أر مارى أنطوانيت، ولكنها لايمكن أن تكون بهذا الجمال. كانت حسناء الزمان لاتكاد تخرج من باب الجامعة حتى يتبعها جمهور من طلاب الكليتين، كأنهم ينتظرونها، أو كأنهم تركوا كل ما يمكن أن يشغلهم وانطلقوا ساعين فى موكب الشمس. ربما رأتنى أمى بينهم فى إحدى طلعاتها الاستكشافية

فمنعها ضعف بصرها وبصيرتها من أن ترى الشمس، وربما عرفت ـ وهى أعرف الناس بى ـ أنى لن أجرؤ أبدًا على الاقتراب منها.

ترى أين هى أم كيف هى الآن؟ أعجوز مثلى فتسمح لى بكلمة فأقول لها إنها زلزلت كيانى وجعلتنى عاجزًا حتى اليوم عن صياغة أى نظرية معقولة عن الجمال، ولو لاستعمالى الشخصى فقط، حتى أستطيع أن أعبر الهوة المرعبة بين الجسد والروح؟

وإذ قد وعدتك بحديث عن الأساتذة والمحاضرات فلأبدأ بالفلسفة، التى كان يدرسها لنا ثلاثة أساتذة لكل منهم محاضرة واحدة فى الأسبوع، ولا واحد منهم درس لنا علم الجمال، مع أنه من العلوم الضرورية لمن يدرسون الأدب (بصرف النظر عن مشكلتى الشخصية معه). كان أولى من المنطق مثلاً، ومدرسه الدكتور أبو العلا عفيفى الذى سمعنا أنه حصل على الدكتوراه من لندن فى فلسفة ابن عربى، ولابن عربى فلسفة محترمة فى الجمال، ولكن الله يرحمه ورحمنا من أن يدرسها لنا أبو العلا عفيفى. فقد كان الرجل يبدو مشمأنطًا بصورة دائمة. لم أره قط يبتسم، ولاربع ابتسامة ولاعشر ابتسامة، وكان يدخل المدرج وكأن أحدًا يدفعه فى ظهره، ثم يبدأ تأتأة فى قوانين المنطق، وكأن هذا المنطق إلا يمكن أن يكون جامدًا عابسًا مثل وجهه.. والحق أن لهذا الرجل قدرة عجيبة على أن يجعلك تكره الفلسفة وتكره الدنيا كلها. وقد حضرت دروسه فى المنطق، وقرأت كتابه الذى ألفه فيما بعد المدارس الثانوية، وزعم فى مقدمته أنه قصد به إلى المدرسين لا إلى الطلاب، وكأنه يخوّف الطالب من قراءته، فلم أدر أيهما جنى على الآخر: المنطق على أبو العلا عفيفى أم أبو العلا عفيفى على المنطق؟

الساعة الثانية من الساعات الثلاث كانت للفلسفة اليونانية. وكنت قد قرأت "قصة الفلسفة اليونانية" لأحمد أمين وزكى نجيب محمود، وعايشت من خلاله هؤلاء الفلاسفة اليونانيين، ولكن يوسف كرم كان يملك قدرة عجيبة على التلخيص، وكان يقرأ من مذكرة، أو على الأصلح يملى، ويقرب المذكرة من عينه،

أدركت أن له طريقته الخاصة فى معايشة فلاسفة اليونان، وأشفقت عليه من عجزه عن ضبط النظام فى المدرج، وكان إذا اشتدت الجلبة رفع عينيه عن مذكرته ونظر إلينا نظرة رواقية بائسة.

أما الرجل الذى أخذ بأيدينا حقًا إلى مشكلات الفلسفة فكان إبراهيم بيومى مدكور. إن لهذا الرجل قدرة نادرة على جعل الفلسفة قريبة من فكر أى إنسان، بل شيئًا ضروريًا كالماء والهواء، ولكنه ضن بوقته على الكتابة، وبعثر عمره الطويل فى المناصب. أما حين كان يدرسنا "مشكلات الفلسفة "فى السنة الأولى فى كلية الآداب فكان قد رجع حديثًا من فرنسا بعد أن حصل على دكتوراه الدولة برسالتين إحداهما عن "منطق أرسطو فى العالم الإسلامى" والأخرى عن "منزلة الفارابى فى الفلسفة الإسلامية" . وكانت أول مشكلة درسها لنا هى مشكلة "الحياة" ولاأظنه تجاوزها، ولكنها كانت مدخلاً جميلاً لتعريفنا بالفلسفتين المادية والمثالية، وهما كل الفلسفة. وكان إبراهيم مدكور محاضرًا يملك آذان سامعيه قبل عقولهم، ذا صوت واضح رنان، يعرف كيف ينغمه دون تكلف، فيلوّن الطبقات، ويؤكد ما يريده تأكيده من الجمل. وقد درس لنا الفلسفة الإسلامية أيضًا حين انتقلنا إلى السنة الثالثة، وكانت محاضرته تجمع طلاب قسم اللغة العربية وقسم الفلسفة. ولا أدرى هل أؤكد إعجابى به حين أقول إنه كان يكرر المحاضرة أحيانًا فى المحاضرة التى تليها، ليفهم من لم يفهم أولاً، وربما أيضًا لأن فى التكرار ضربًا من التفنن (كما تكرر أم كلثوم فى أغانيها) أم أطاوع سوء ظنى فأقول إنه يشغل بأمور السياسة والحياة الاجتماعية، فينسى أو يؤجل إعداد المحاضرة التالية؟ أى الأمرين كان، فإنى لم أره قط ينظر فى ورقة.

الدكتور محمد مصطفى زيادة، الذى يدرس لنا تاريخ مصر من أقدم العصور إلى العصر الحديث، كان يقرأ من مذكرة مكتوبة. والطريف أنه كان ـ على ما يبدو ـ يضع علامة على الموضع الذى انتهى إليه، وكان مغرمًا باستعمال "وقد" . فربما كانت الجملة التالية تبدأ بقوله "وقد" فيبدأ بها المحاضرة التالية. ولَما تكرر ذلك منه جعل الطلاب إذا رأوه يصعد إلى المنصة ويضع الكراسة أمامه يصيحون "وقد" .

ليس عندى الكثير لأقوله عن الدروس الأخرى. لعلى لو أجهدت ذهنى قليلاً لاستطعت أن أتذكر بعضهم على الأقل. مثلاً ذلك الذى كان يقرأ معنا "مكبث" أو الآخر الذى كان يقرأ معنا قصائد من "الكنز الذهبى" ولكن لماذا أجهد نفسى؟ لوأننى سمعت من أحدهم مرة كلمة حكيمة، كما سمعت من أناس عاديين، لعلقت بذاكرتى. آفة التعليم أنه يقتل التلقائية عند المعلم والمتعلم جميعًا. ولكنك محق إذا طالبتنى بأن أستعيد مايمكننى أن أتذكره عمن درسوا لنا الأدب العربى فى تلك السنة الأولى، فهؤلاء سوف تستمر صلتى بهم، ولو بعض الوقت، ما دمت قد بقيت مصممًا على دخول قسم اللغة العربية.

مع ذلك لايمكننى أن أتذكر شيئًا من النقد الأدبى الغربى الذى كان يدرسه لنا أحمد الشايب (لويس عوض يتذكره أفضل منى!» مع أن أحمد الشايب ستكون له معى قصة فى أولى سنوات التخصص.

وكان معه أربعة من المعيدين عينهم طه حسين فى تلك السنة ذاتها: نجيب البهبيتى، وسهير القلماوى، وشوقى ضيف، وعبداللطيف حمزة. كانوا يقرءون مع فصولهم قطعًا من ديوان الحماسة، وجاءت قرعتى مع نجيب البهبيتى، ووجدت فيه زهوًا لم أفهم سببه، وبقيت بينى وبيه جفوة حتى بعد أن اقترفت بنا السبل، ثم كان من المفارقات أنى عينت مدرسًا فى مكانه حين أخرج فى الجماعة مع من أخرجوا فيما سُمى بالتطهير.

كان لدى برنامجى الخاص فى الدراسة. فقد كنت أرى أنى لم أصل بعد إلى ما أطمح إليه من إتقان اللغة الإنجليزية، وقد أعطانى محمود حمزة معجمين ثمينين، قال إنه فى غير حاجة إليهما: معجم "تشامبرس القرن العشرين" الإنجليزى، ومعجم "لاروس المدرسى" الفرنسى. أخرت الاهتمام باللغة الفرنسية إلى سنة تالية، وبدأت برنامجى الإنجليزى. كنت سألت المستر أرشيبولد: من اقرأ من الكتاب المعاصرين؟ قال: اقرأ جون ميزفيلد. لابد أن جون ميزفيلد كان كاتبه الأثير فى شبابه، وإن كلمة "المعاصرة" ضللتنا نحن ـ الاثنين ـ ، فقد كان يدرس لنا "قصة مدينتين" لديكنز، وبكنز عاش فى أواسط القرن التاسع عشر، وجون ميزفيلد ألف معظم أعماله فى الربع الأول من القرن العشرين، ولكن ديكنز

"معاصر" أكثر من جون ميزفيلد. على كل حال، لم أكذب خبرًا، استعرت ثلاث روايات لجون ميزفيلد، دفعة واحدة، من مكتبة الجامعة أو من دار الكتب، لم أعد أذكر أيهما، فقرأت قصصًا فاترًا، ليس فيه شىء من عاطفية ديكنز، ولا من دعابة ديكنز، وشعرت أنى أعيش فى مناخ إنجليزى قح. ورددت الكتب قبل أن أتمها، وقررت مرة أخرى أن أعتمد على نفسى. كنت قد قرأت فى المجلات العربية أشياء عن طاغور، فقلت لنفسى: هذا رجل شرقى، فلننظر كيف يكتب. وبدأت بمجموعاته القصصية، ثم استعرت من مكتبة الجامعة مجلدًا جمع شعره ومسرحياته، وبدأت أترجم من قصصه القصيرة وأقدمها إلى أحمد حسن الزيات فينشر معظمها فى "الرواية" وبعضها فى "الرسالة" وأعجبنى شكل القصة القصيرة، فرحت أقرأ قصص تشيكوف، مجموعة وراء مجموعة.

ولم أنس أنى دخلت كلية الآداب لأصبح تلميذ طه حسين، وإذا كان قد وضع نجيب البهبينى وأحمد الشايب فى طريقى فإن ذلك يجب ألا يدعونى إلى اليأس.

وبعد فحبى للقرآن أكثر من حبى لطه حسين. كنت أعشق تلاوته فى جوف الليالى، ولاسيما سورتى "مريم" و "طه": ﴿ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (*) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ (سورة مريم، الآيتان:٢، ٣). ﴿ طه (*) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴾ (سورة طه، الآيتان:١، ٢)، ما هذه الابتداءات التى تملأ النفس روعة!.

فيما عدا اللغة اللاتينية لم تكن مواد الدراسة تحتاج منى إلى أكثر من قراءة سريعة. ومع ذلك جاء ترتيبى التاسع من نيف وخمسين ناجحًا (أى عشر من تقدموا للامتحان على وجه التقريب) فقد كانت سياسة طه حسين أن يفتح باب القبول على مصراعيه، ثم عند الامتحان يكرم المرء أو يهان. وبدأت قراءة القرآن بصورة منتظمة مع تفسير النسفى، وقرأت "نهج البلاغة" كله، وأعدت قراءته مرات، ومازال حب الإمام علىّ معششًا فى قلبى، وخيانة أتباعه له تعزينى عن خيانة كل صديق. وفى الأدب الروسى أردت أن أسير سيرًا منتظمًا، فبدأت بكتاب صغير عن تاريخ الأدب الروسى، فى سلسلة "جامعة البيت"، ومؤلفه موريس بيرنج

دبلوماسى عمل فى روسيا وعشق الأدب الروسى، ولا أنسى مقالة رائعة لدى فوجيه الفرنسى، قرأتها ضمن موسوعة "الأدب العالمى" باللغة الإنجليزية.

إلى جانب تشيكوف ودستويفسكى، أحببت تورجنيف جدًا. وأعادت إلىّ رواياته: "الآباء والأبناء" و"الأرض البكر" الاهتمام بالسياسة. أما تولستوى، فقد بدا لى رأينًا أكثر مما ينبغى، ولا أظننى قرأت له فى تلك الفترة غير رواية قصيرة واحدة "سوناتة كرويتسر". وقرأت ترجمة طويلة لحياة تورجنيف بقلم كاتب روسى اسمه يارمولنسكى، عرفتنى بالمناخ الثقافى السائد فى روسيا القرن التاسع عشر، والصراع بين أنصار الثقافة السلافية، ويمثلهم دستويفسكى، وأنصار الثقافة العربية وزعيمهم تورجنيف، وهو شبيه بالصراع الذى لايزال محتدمًا بين السلفيين والغربيين عندنا. هذا التشابه، مع مشابهات كثيرة أخرى - يظل يجذبنى إلى الأدب الروسى حتى اليوم، وإن كنت قد توسعت فى قراءة الآداب الغربية وأعجبت على الخصوص بولز وبرنارد شو لنزعتهما الاشتراكية، وبتوماس هاردى لميوله التشاؤمية والثورية.

كانت القراءة على "لمبة الجاز"، وخصوصًا مع استعمال القاموس، تجهد بصرى، فلما انتقلنا إلى المسكن الجديد بمصباحه الكهربائى شعرت بنعمة كبيرة. ولولا القراءة فى ذلك الصيف بالذات، لاختنقت، فلم يكن لى صديق ولارفيق، حتى ولو كان شخصًا عابرًا. ولكن يجب ألا أنسى شابًا رزينًا جدًا جدًا، اسمه حسن أنيس، التحق بقسم الفلسفة، وكان يسكن مثلى فى بين السرايات، وشابًا آخر كنت أراه كثيرًا فى قاعة الدوريات فى الجامعة، وعرفت أنه طالب فى كلية الحقوق، واسمه محمد عودة، لا أذكر هل التقيت بهما فى ذلك الصيف بالذات أو فى خلال السنة، ولكننا حين جمعتنا المصادفات بعد ذلك، الأول فى المجمع اللغوى والثانى فى الصحافة، التقينا كأصدقاء.

وكانت زيارات خالى عبدالفتاح تؤنسنى أحيانًا، وربما بات عندنا ليلة أو ليلتين، ومثله توفيق ابن خالتى، وكان قد حصل على البكالوريا معى فى السنة نفسها، وأقنعته بصعوبة أن يقدم أوراقه إلى كلية الآداب، ولكنه أضرب عن الدراسة ظنًا

منه أن أهله سوف يبحثون له عن عمل بطريقة ما، ليتخلصوا منه، فقد كان مصممًا على الزواج بفتاة معينة. وكان والده قد انتقل من طنطا إلى بنها ثم إلى القاهرة، وأصبح "سائق إكسبريس"، ولكنه يقترب من سن التقاعد، وهو مثل أبى، لن يكون له معاش.

ومضيت أبرمج دراساتى الصيفية كما أشتهى، وسرنى أنى وجدت اسمى فى أول السنة الثانية على رأس الأسماء فى الفصل الأول من قسم اللغة الإنجليزية، ولم أكن كتبته فى الاختيارات ولكن درجتى كانت من أعلى الدرجات، فرشحتنى لهذه الميزة، وأهم ما فيها ـ عندى أنا ـ أن الفصل ذاته كان يضم حسناء الزمان، وحضرت درسًا أو درسين على بعد صف أو صفين منها، ثم أدركنى اليأس، وقلت مع الشاعر العربى:

هى الشمس مسكنها فى السماء فعزِّ الفؤاد عزاءً جميلا

فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع إليك النزولا

وعدت إلى قسم اللغة العربية. وكان اسمى أيضًا على رأس القائمة، التى تتكون من تسعة عشر طالبًا لاغير. ولكننى صدمت حين تأملت جدول الدراسة فلم أجد إلا أسماء مجهولة ـ لا طه حسين. لا أحمد أمين. عبد الوهاب عزام يدرس لنا العروض. لم أكن أعلم أن بين هؤلاء الأساتذة الذين لم أسمع بهم من قبل رجلين سينفعنى علمهما أكثر من كل ما تعلمت من غيرهما. سآكل عيشى به فى الدنيا وأتقرب إلى الله به فى الآخرة: أولهما إبراهيم مصطفى أستاذ النحو الذى غرس فى قلبى عشق هذا العلم حتى أصبحت أراه (ولاتعجب لما أقول) قمة الفلسفة العربية وقمة الفن العربى، والثانى أمين الخولى الذى علمنى الصبر على البحث حتى فى أصغر التفاصيل، والجرأة فى طرح الأسئلة ولو لم يكن ثمة جواب، وجعل محبتى للقرآن ممزوجة بكل ما حصلته ووعيته، وأعطانى مفاتيح البلاغة العربية علمًا وعملاً، اتخذته أبًا ـ كما عرّف أبوة الرأس ـ فما قصر فى أبوتى، أخذنى بالشدة فى بدء مسيرتى معه حتى إذا أنس منى رشدًا انبسط معى

وكشف لى من مكنون فكره ما لايودعه عالم فى كتاب. وكانت مفخرة عمرى - ولا تزال - أنى خلفته فى تدريس البلاغة والتفسير فى كلية الآداب.

وهل أنسى ذلك الرجل المهذب الشديد الالتزام، إبراهيم أمين الشواربى، الذى علمنا مبادئ اللغة الفارسية؟ ولعلك حين تسمع "تدريس مبادئ اللغة" لا تتصور أن القائم بهذا العمل يمكن أن يترك فى نفس المتعلم أثرًا باقيًا، إلا إذا واصل هذه الدراسة وتخصص فيها. ولكن إبراهيم أمين الشواربى كان من الجد والإخلاص والإيمان بقيمة عمله بحيث ألزمنا جميعًا احترامه واحترام اللغة التى يدرسها وثقافة هذه اللغة. وكان يدرس لنا ثلاث ساعات فى السنة الثانية، يخصص ساعة منها لتاريخ الثقافة الفارسية، والساعتين الباقيتين لمبادئ اللغة. وفى السنة الثالثة يدرس لنا ساعة واحدة، لنتعلم مبادئ اللغة التركية فى الساعتين الباقيتين على يدى أستاذ آخر، ثم يواصل معنا دراسة اللغة الفارسية، فى نصوص أدبية ممتازة، فى السنة الرابعة، إذ تبدل القسمة فتكون للغة الفارسية سرعتان وللتركية ساعة واحدة، وعندما وصلت إلى السنة الرابعة كنت أقرأ شعر حافظ الشيرازى مع استعانة يسيرة بترجمة إنجليزية.

عراقيًا، أذكره الآن بالخير وأترحم عليه، محمود غناوى الزهيرى، الذى تتلمذ بعد ذلك على الشايب نفسه وأخذ على يديه الدكتوراه، وأصبح عميدًا لكلية الآداب فى جامعة بغداد، قال لى بعد أن خرجنا من المحاضرة الثانية: هذا أحسن بحث ألقى فى هذا العام. والواقع أنى لو لم أطرح هذا البحث فى سلة القمامة أو أتلفه بطريقة من الطرق (عملاً بنصيحة توفيق الحكيم) لأحببت أن أنشره الآن. فقد بدأته بمناقشة رأى ابن قتيبة فى منهج القصيدة، وقلت إنه لا يتفق مع معظم الشعر الجاهلى الذى وصلنا، ورجحت أن القصائد الطويلة التى سميت بالمعلقات كنت نمطًا خاصًا من الشعر، وأن الشعراء أنفسهم كانوا يزيدون فيها وينقصون منها، ويحتمل كذلك أن الرواة جمعوا بعض المقطوعات إلى بعض، عمدًا أو خطأ، لاتحادها فى البحر والروى (وهذه هى النقطة التى استحسنها الشايب). وقلت إن الشعر الجاهلى كان فى مجمله شعرًا طبيعيًا مرتبطًا بمناسباته، وبناء على ذلك لايصح الاقتصار فى دراسة النسيب على مقدمات القصائد. ووقفت وقفة طويلة نوعًا عند عروة بن حزام الشاعر العذرى الذى اختلف الرواه فى كونه جاهليًا أو إسلاميًا، ورجحت أنه جاهلى، وأن شعره يعبر عن حالة القلق الروحى التى سرت فى جزيرة العرب قبيل الإسلام.

لم أعرف أن الأستاذ الشايب صنفنى كافرًا من أول العام، وقرر أن يقصينى عن قسم اللغة العربية إن استطاع، إلا حين رأيت درجاتى فى آخر العام: ١١ من ٢٠ فى أعمال السنة، أى أقل من النسبة المئوية المطلوبة فى المجموع الكلى وهى ستون فى المائة، وإن كان ثلاثون فى المائة كافية للنجاح فى كل مادة على حدة. أما درجة الامتحان التحريرى، فمما يشهد له بالذمة والأمانة أنه لم يعطنى أقل من ١٥. ولكن الدرجتين معًا كانتا كافيتين لحرمانى من «الامتياز». وهكذا أصبحت فى السنتين الثالثة والرابعة طالبًا «عاديًا»، مع أن ««الممتازين» كانوا ستة من تسعة عشر طالبا! والحق أن سقوط منزلتى بهذا الصورة كبر علىّ جدًا وفكرت أن أتحول إلى قسم آخر ، بادئًا مرة أخرى من السنة الثانية، ولكننى توقعت أن ترفض إدارة الكلية ذلك، ما دمت ناجحًا. وربما تعزيت بأنى حصلت على أعلى درجتين فى التفسير والبلاغة.

نهاية امتحان الشفوى: «يريدون أن يلغوا الامتياز؟ أنا أعطيتك درجة جيدة». أعطاه ١٥ من عشرين، وهو يستحقها فعلاً، وربما أكثر منها، ولكن المشكلة كانت معى أنا.

دخلت بعد الشنيطى، ولعلنا كنا آخر الممتحنين. كان طه حسين جالسًا فى الوسط، وعن يمينه عبدالوهاب عزام، وعن يساره سهير القلماوى. ناولتنى سهير القلماوى جزءًا من شرح الحماسة للتبريزى مفتوحًا وأشارت إلى نص لأقرأه:

ومولىً جفت عنه الموالى كأنه من البؤس مطلىٌ به الفارُ أجربُ

رامت إذا لم ترأم البازل إبنها ولم يكُ فيها للمبسّين محلَبُ

قرأت البيتين كيفما اتفق، فقد كنت انظر إلى طه حسين. والظاهر أن القراءة كانت صحيحة، فإنه لم يعلق عليها، بل سألنى أن أفسرهما.

لم يكن الشعر الجاهلى غريبًا علىّ حتى أحار فى تفسير البيتين ولكننى بقيت صامتًا أنظر إلى طه حسين، وظل ابتسامة صفراء على وجهه.

قالت سهير: الشرح أمامك!

وقًا كان البيتان مشروحين فى النص نفسه، وكننى كنت أنظر إلى طه حسين.

هل يمكن أن يخطر بباله أن صبيًا ما، قال لزميل له وهما جالسان على مقعد خشبى فى محطة أشمون: أتمنى أن أكون مثل طه حسين، ولو فقدت بصرى؟

كنت أرى فى وجهه أنه يريدنى أن أسقط، وكانت إرادتى تريد أن تنكسر أمام إرادته، فام أنطق بكلمة. قال لى: قم!

وأعطانى عشرة من عشرين، وارتفعت نسبة الشنيطى الممتاز إلى ٧٥,٥٪، بينما انخفضت نسبتى إلى ٧٥٪.

وبقى الامتياز

لن يكون هذا آخر العهد بينى وبين أستاذى طه حسين، وكن هذا الموقف يذكرنى بموقف مشابه عندما حدثوه عن رسالتى للدكتوراه (ربما قبل أن تناقش)

وكانت عن كتاب اشعر الأرسطى. وكان عبد الرحمن بدوى قد أصدر كتابه «فن الشعر» قبل ذلك بقليل وفيه ترجمة جديدة للكتاب بقلمه مع حواش كثيرة أتبعها بالنصوص العربية القديمة فى ترجمة كتاب الشعر وشرحه، وقدم لذلك كله بمقدمة ضافية.

سألنى طه حسين سؤالاً مباشرًا:

أيهما أجود: عملك أم عمل بدوى؟ كنت أعرف منزلة عبدالرحمن بدوى طه حسين، وأعرف قيمة عبدالرحمن بدوى، وثقافته الموسوعية. ونشاطه الخصب، ولكننى أعرف أيضًا أنى أنفقت مع كتاب الشعر هذا ثلاث سنوات كاملة وأنى حاولت فيه ما لم يحاوله عبدالرحمن بدوى. فلم تكن إلا هنيهة قبل أن أُجيب:

- عملى.

كان طه حسين إذا شعر باهمية شىء، استقام جذعه بحركة لاتكاد تلحظ . لمحت هذه الحركة واستبشرت، وتعلمت درسًا.

لاتضعف أمام أحبابك. إن كانوا يحبونك حقًا فإنهم يريدونك قويًا، حتى أمامهم.

أما الاستاذ الذى عرفناه فى السنة الأولى، وبدا أنه الموكل بتوجيه طلاب اللغة العربية فى بداية تخصصهم، فكان الأستاذ أحمد الشايب. إذ كان يدرس لنا تاريخ الأدب، وكانت له محاضرتان، وبدأ فى أول السنة يوزع أبحاثًا على اطلاب فأدركنا أن فى يده درجة أعمال السنة إلى جانب درجة تاريخ الأدب، وكان من سوء حظى أنه رآنى صباح يوم من أيام رمضان - أى أننا كنا فى أوائل العام الدراسى - أشرب كوب ليمون فى محل عصير بميدان العتبة. كان ظهرى إليه، فلم أره ولكن زميلىّ الواقفين فى مواجهتى قالا لى، والكوب على فمى: «الشايب شافك! «لم أعرف مقدار هذه المصيبة إلا بعد ذلك حين لاحظت أن الرجل بدأ يعرض عنى، ثم حين أخذ يوزع الأبحاث على الطلاب الباقين، فجعلنى آخرهم، واختار لى موضوعًا واسعًا متشعبًا «النسيب فى الشعر الجاهلى» وكل الطلاب قبلى كانوا يكلفون ببحث شاعر واحد.

قلت فى نفسى: إن الرجل يتحدانى، يريد أن يعرف قوتى. وعكفت على البحث قراءة وتأملاً وكتابة قرابة ثلاثة أشهر، شغلتنى عن غيره، ولكننى لم أهتم لذلك، فالدراسة لاتزال هينة وإذا جمعت مذكرات الأساتذة كلها - وكانت هى العمدة فى الامتحان على أيامنا أيضًا - لم تتجاوز حجم كتاب متوسط.

كان بحثى آخر ما ألقى من بحوث. استغرق إلقاؤه المحاضرتين مجتمعتين. وعلق عليه الأستاذ بأن أخذ علىّ أنى لم أقدم للبحث بالتمييز بين النسيب والغزل، ثم استحسن نقطة واحدة فرعية منه، وأعرض عن الباقى. ولكن زميلاً

أوروبا كلها - ماعدا روسيا - فى قبضة النازى وبقى الناس يترقبون الخطوة التالية إن كانت ثمة خطوة تالية، وافقت حصولى على الليسانس. فى ذلك الوقت اشتدت الغارات على المدن الكبرى وخصوصًا الإسكندرية والقاهرة، وأخذ الناس يهاجرون إلى الريف. وبما أن الإقامة فى القاهرة لم يعد لها معنى فقد انتقلت بأسرتى - مثل المهاجرين - إلى الكفر بعد غياب دام تسع سنين. وبما أن الليسانس التى حصلت عليها لم تكن تساوى شيئًا بعد وقف التعيينات فى جميع الوظائف عدا الجيش والبوليس والطب والتعليم، فقد تحتم أن أدخل معهد التربية، وإن كان قد سمى الآن معهد التربية العالى، وأصبح يتسلم الحاصلين على ليسانس الآداب أو العلوم من الجامعة فيعدهم ليكونوا معلمين. ومع أنى لم أكن سعيدًا أول الأمر بمهنة التعليم فلم يكن ثمة سبيل آخر لكسب العيش. وكان نظام معهد التربية داخليًا إلا أن يحصل الطالب على موافقة خاصة إذا كان أهله مقيمين فى القاهرة، فأصبح منزلى معهد التربية، وتضاعفت إقامتى فيه من سنة إلى سنتين - لأنى رسبت فى التربية العلمية أول سنة - فعاصرت دفعتين. وحصلت أنا المنطوى بطبعى، على تجربتين بدلاً من تجربة واحدة فى الحياة المشتركة. وكان يشاركنا فى الإقامة الداخلية طلبة التربية الفنية وطلبة التربية البدنية، وكل فريق له طرائقه فى السلوك. ومع ذلك فقد خرجت من هاتين السنتين ببعض الصداقات، وضاعفت قراءاتى فى علم النفس، وتعرفت - لأول مرة - على «المنهج العلمى» بمعناه الدقيق فى دروس التربية التجريبية التى كان يتولاها أستاذ عظيم، هو إسماعيل القبانى، أول وزير للتعليم فى عهد الثورة، وقد استقال بكرامة حين رأى سياسة التعليم توجه لخدمة أهداف حكومة «الثورة» بدلاً من إحداث «ثورة» حقيقية فى التعليم، حسب ما كان يراه.

وهكذا كنت أتنقل بين القاهرة وكفر شنوان، وأحيانًا بيت خالتى فى شبرا حيث أقضى نهاية الأسبوع. ولكن مراقبة الحرب من منظور القرية كانت أكثر إمتاعًا. فتحت شجرة قرب شاطئ الترعة، فى سكون الليل، وبين أنفاس الحشيش، يمكن أن يقال أى كلام عن هتلر وموسولينى وبيتان وروميل. لم يكن أحد يعرف شيئًا عن الروس، ولكن حين تأزمت الأمور وبدا أن الدائرة سوف تدور على الألمان كثر

غرام الأستاذ الشايب بالتصنيف كان أمرًا مشهورًا عنه. فمن أحكامه النقدية المقررة والمكررة: إذا جاءنا المتنبى لندخله بين الشعراء نقول له: معذرة، أمامك باب الخطباء. وإذا جاءنا المعرى نقول له: تفضل من باب الفلاسفة. وفى تعليقاته الموجزة على بحوث الطلاب فى الشعر الجاهلى كان يقول مثلاً: زهير حكيم ، طرفة فتوّة، إلخ. أسألك يا ربّ، بمنك وكرمك، ألا يقف أحمد الشايب بين مالك ورضوان، ويكفينى ما فعله بى فى الدنيا. وأنت يارب أعلم بى إن كنت أفطرت فى ذلك اليوم عامدًا أو مضطرًا. وما أبرئ نفسى، ولكنى أتذكر أنى فى تلك السنة نفسها تأخرت عن موعد الإفطار بضع دقائق، فوجدت أمى تنتظرنى على مائدة الإفطار وهى فى حالة اكتئاب شديد لأنى تأخرت فى هذا اليوم المفترج، ولم أنتظر مدفع الإفطار جالسًا بينها وبين الشقيقتين كما ينبغى لرب أسرة يعرف واجباته.

وأضرع إليك يا رباه أن تسكت هذا الشيطان اذى يدمدم فى داخلى: والله لو لقيتك يومًا فى جنة أو نار، يا أحمد يا ابن الشايب لتجدنّ فى يدى هذا البحث المفقود، ومعه نسخة من كتابى «دائرة الإبداع»، وأخرى من «اللغة والإبداع» وقد قلت فيهما أحسن ما يمكن أن يقال عنك، ولأدفعن بالجميع فى وجهك قائلاً: اقرأ ... كفى بنفسك اليوم عليك حسيبًا.

أضمرت فى نفسى أن أهزأ بالامتياز ومن اخترعوه. مضيت فى تثقيفى الذاتى كما يحلو لى، وخصصت الأسابيع الأخيرة قبل امتحان الليسانس للمقررات، بعد أن عرفت ما يريده الأساتذة على أوراق الامتحان. كان عددنا صغيرًا، والأرقام السرية شيئًا لم يسمع به فى الجامعة، واسمى المجهول يظهر فى لجنة رصد الدرجات وأمامه أعلى درجة فى جميع المواد بدون استثناء. أصبح الأمر معروفًا قبل إعلان النتيجة، صديقى محمود الشنيطى سيكون أول الممتازين (معه طالب واحد فقط، والباقون فقدوا امتيازهم) ونسبته المئوية حوالى ٧٥٪. أنا أول «العاديين» ونسبتى المئوية حوالى ٨٠٪. وسمعنا أن أساتذة القسم دهشوا لهذه المفارقة وبدءوا يتساءلون «ما فائدة الامتياز إذن؟» ولكن طه حسين لم يوافق على هذه الفكرة. وثبت أن الاقتراح طرح فعلاً عندما قال طه حسين للشنيطى فى

الحديث عن عنبر ١٣ الذى لم يفتحه هتلر بعد، مع أن بمقدوره أن يفتحه فى أى لحظة وينهى الحرب فى ساعات. ولماذا لايفتحه ؟ يسأل سائل. فيجيب من عنده علم من الكتاب: وماذا يفعل بعالم ليس فيه شعوب ولابلاد؟

وفى إحدى عطلات الصيف، ربما كان ذلك سنة ٤٠ أو ٤١، قابلت عبدالمحسن نور مصادفة فى قهوة فى شبين. كان يلبس بدلة مدينة فاخرة وأحسبه كان قد رقى إلى ملازم أو يوزباشى. أخرج من جيبه الداخلى قلمًا ذهبيًا وأخذ ورقة ورسم خريطة لوروبا وقال: الحرب انتهت خلاص.

عندما أحاول أن أسترجع ما قرأته عن مصر فى زمن الحرب، أو عن عصر فاروق، أو عن حريق القاهرة: ـ لاأجد شيئًا منه عالقًا بذاكرتى. لا أجد غير هذه الذكريات الخاصة، تاريخ ما أهمله التاريخ. أجهد ذاكرتى متعمدًا أن لا أراجع الكتب، فأتذكر أن هذه الكتب اشتملت على وثائق وحوارات، معظمها منقول من الصحافة المعاصرة، فى مصر وغيرها مصر، وكلها وقائع مهمة، علامات فارقة، نقط وفصلات، ولكن ما قيمة النقط والفصلات بغير كلام؟

يقولون: «وضع النقاط على الحروف». نعم، ولكن أين هى الحروف أولاً؟ دعنى أعطيك الكلام بلا نقط ولا فصلات. ربما كانت هناك إضاءات من الحاضر، تكشف ما بين السطور.

عندما دخلت الجامعة شعرت بأن الطلبة يكونوا مجتمعهم الخاص الذى كان ـ كما خمنت ـ وراء أحداث السنة الماضية. وكان يدخل بين ساعات المحاضرات طلاب يقولون إنهم رشحوا أنفسهم لاتحاد الجامعة ويطلبون منا أن ننتخبهم. ولكننى لا أستطيع أن أتذكر أن أى واحد منهم قال شيئًا عن أفكاره أو مشروعاته فيما يتعلق بالجامعة أو غير الجامعة. ماذا يمكنك أن تفعل ـ إذًا ـ إلا أن تقارن بين أشكالهم؟ وقد انتخبت فتاة ذات عينين حزينتين اسمها فتحية الكابلى، أولاً لأنى من أنصار المرأة منذ قرأت المرأة الجديدة وتحرير المرأة لقاسم أمين، وثانيًا إكرامًا لعينيها. بعد ذلك بدأت أرى ناسًا يدخلون المدرج فى بعض الأيام

كنت مع توفيق ابن خالتى فى قهوة فى شبرا، حيث كانوا يسكنون قرب مزلقان السبتية. لايزال عاطلاً، وأنا أستعد للسنة النهائية. وسمعنا من راديو القهوة صوتًا مرتعشًا يقول إن بريطانيا وفرنسا أصبحتا فى حالة حرب مع ألمانيا.

مثل جميع المستعمرات السابقة لم يكن الخبر يعنينًا حقًا. فليتحارب الكبار ما شاءوا، بشرط أن يبقوا بعيدين عنا. وكانت السياسة المعلنة من قبل الحكام «تجنيب مصر ويلات الحرب» مناسبة جدًا لمزاج الشعب المصرى، الذى توارث كره الإنجليز، جيلاً بعد جيل، من عرابى إلى مصطفى كامل إلى سعد زغلول إلى مصطفى النحاس، رغم معاهدة ١٩٣٦. وكان الناس يستمعون فى القهاوى والبيوت إلى صوت يونس بحرى المذيع العراقى من راديو برلين يسب الإنجليز ويتوعدهم بالهلاك السريع، كما سيستمعون من بعد إلى صوت تلميذه أحمد سعيد، وكانوا يصفقون لثورة رشيد عالى الكيلانى التى انهارت بعد أيام أو بعد ساعات. واشتدت وتيرة الحماسة عندما دخل الألمان حرب الصحراد ووصلوا إلى العلمين فخرجت المظاهرات فى الإسكندرية تهتف: تقدم يا رومل.

هذه السيرة الذاتية ليست تاريخًا ، فصاحبها لم يكتب مذكرات، ولم يشارك فى الأحداث السياسية (إن كانت هناك أحداث) بأى صورة من الصور. ولكنها تكتب، فيما تكتبه، تاريخ ما أهمله التاريخ. وعندما أفكر فى الأمر، أجد توافقًا غريبًا بين ما أصاب صاحبها، حتى فى حياته العاطفية، وما كان يعانيه عامة للناس. فالسنة الأولى من الحرب، التى تميزت بالحروب الخاطفة حتى أصبحت

• فى سنة ٣٨ أو ٣٩ نظمت مناظرة فى قاعة الاحتفالات بالجامعة، وكان موضوعها على ما أذكر: «كيف نستفيد من الثقافة الغربية». وكان بين المشاركين فيها: عباس محمود العقاد ومنصور فهمى وحسن البنا.

سارت المناظرة سيرًا عاديًا. حتى إذا جاء دور حسن البنا رأينا ممرات القاعة قد امتلأت بشبان كثيرين، وجعلوا يصيحون بعد كل مقطع من كلامه: «الله أكبر ولله الحمد» ويكررون هذا الهتاف.

لست مؤرخًا، ولكنى لا أستطيع أن أفهم لماذا أهمل مؤرخونا هذه الفترة من تاريخنا الحديث، أعنى الفترة من ٧٣ إلى ٤٢، ولماذا لم يبق منها فى ذاكرة الناس، وفى ذاكرة التاريخ الصحفى، إلا يوم ٤ فبراير.

هذه هى الفترة التى أثبت فيها رجال الأحزاب، المرة تلو المرة، عدم إيمانهم بالديمقراطية، وسيطرت فيها الدعاية على أذهان الناس، وأصبحت القوة الغاشمة وحدها هى وسيلة الحفاظ على الحكم أو الوصول إلى الحكم.

لست مؤرخًا ولا متنبئًا. وقد كنت أعترف دائمًا بأنى مشغول بما يجرى فى داخلى، أكثر مما يجرى من حولى. ومع ذلك فإنى أذكر يومًا من صيف ٣٩ وحديثًا دار همسًا بينى وبين محمود الشنيطى ونحن نتمشى على كورنيش الإسكندرية. أذكر ذلك جيدًا لأنها الرحلة التى أجبرتنى أمى عليها، وكنا فى زيارة خالى الذى أصبح ناظر ملجأ، يستطيع أن يستخدم كابينة البلدية يومًا فى الأسبوع، ويستطيع أيضًا أن يصحبنى إلى الخياط الذى يتعامل معه ليصنع لى بدلة على حسابه، أتهيأ بها لسنة الليسانس.

قلت لمحمود: لم يعد له (أى للملك) إلا بنادق الجيش كى تحميه. سيكشف الجيش يومًا أنه يمكنه أن يحول فوهات هذه البنادق إليه.

طالما حلمت بالحرية

عشقت الحرية حتى كنت أنظر إلى أقرب الناس إلىّ كما لو كانوا هم ألد أعدائى. فمن غيرهم يمسكنى ، من غيرهم يحول بينى وبين حريتى؟

اصطفيت من نفسى رفيقًا. ولكن رفيقى أصبح سجانى. سجنى الروحى كاد يهلكنى. لم يبق فى الدنيا شىء يشوقنى . لم يبق فى الدنيا شىء ينادينى . خواء العالم من حولى زادنى وحشة. بعقلى كنت أري، وفى أعماقى كنت أختنق. ورحت أردد مع المتنبى:

رمانى الدهر بالأرزاء حتى فؤادى فى غشاء من نبالِ

فصرت متى أصابتنى سهامٌ تكسرت النصال على النصالِ

وهان فما أبالى بالرزايا لأنى ما انتفعت بأن أبالى

غشاء من حديد أو صوّان، والقلب فى داخله حىّ لايزال، يصرخ حيث لايسمعه أحد: من يكسر هذا الغشاء! من ينقذنى من الموت!

اليوم يتحدثون عن شعاع الليزر الذى يمكن أن يخترق حتى الصلب.

أقوى من الليزر شعاع ينبعث من العين إلى العين، ويخترق غشاء القلب ولو كان من فولاذ. شعاع نفضنى، جردنى من كل شىء، وأبقى لى شيئًا واحدًا: الحياة.

لحظة فرحت فيها بحياتى، وإذا الشعاع قد انسحب وتركنى مع قلبى فى صحراء الوحشة.

صرخت: ماذا جنيت؟

قال: بحثنا عن روحك، فوجدناك بلا روح.

فما زلت من يومها أبحث عن روحى هنا وهناك ولا أجدها.

وعبر السنين كنت أشك فى أن أمى هى السبب. حتى بدرت منها كلمة قبل أن تموت، عرفت منها أنها تعتذر عن ذنب لاتطيق التصريح به. أجبتها بمزيج من الدعابة والسخرية، كما تعودت أن أفعل بعد أن اكتهلت وعقلت. ولكن المعنى كان واضحًا: فات الأوان يا أمى، لا أنا أنا، ولا هى هى.

واليوم، كلما رأيت أحد أحفادى يكبر، أقول له:

- يمكنك أن تكون أفض من أبيك وأمك.

هل ترانى مخطئًا؟

انفجارات(*)

(*) نظمت هذه القصائد بين سنتى ١٩٤٠ و ١٩٤٣

ويطالبوننا بأن نترك الدروس ونخرج فى مظاهرات. شعرت أن هذه الأمور مفتعلة وأن الطلبة الذين يتزعمون الإضراب لايعرفون هم أنفسهم ما يريدون. وكان أقبح ما حدث فى هذه السنة أو السنة التى تلتها أن طلابًا من كلية الحقوق هجموا على حجرة العميد وأساءوا إلى طه حسين. وفى اليوم التالى هتف طلبة الآداب لطه حسين وخرجوا به إلى فناء الجامعة محمولاً على الأعناق وخطب فيهم قائلا:

لايضير البحر أمسى زاخراً أن رمى فيه صبى بحجر

ثم قال لهم: احذروا أن تغزوا فى عقر داركم، فما غزى قوم فى عقر دارهم إلا ذلوا.

بالطبع لم اكن أعيش فى قمقم. كنت أعلم أن رجال القصر يريدون تنحية الوفد عن الحكم بعد أن خرج الإنجليز من اللعبة (أى بعد أن قام الوفد بمهمته فى عقد المعاهدة وتأكيدها بالغاء الامتيازات الأجنبية) وكنت أرى بوضوح أن الطلبة الذين أشعلوا شرارة الحركة الوطنية سنة ٣٦ وقاموا بدور مهم فى جمع الأحزاب حول قضية واحدة، قد أصبحوا مجرد أبواق مستأجرة، للإيهام بأن هناك خركة شعبية ضد الوفد، بينما كانت هناك قوى أخرى تحرك الأحداث.

● كانت قوى الأحزاب تتراجع، والدليل هو أن إقالة حكومة الوفد وحل البرلمان سنة ١٩٣٧ لم يحدثا هزة فى البلاد. والدليل الآخر هو أن البرلمان الجديد، الذى دخلته أقلية صغيرة من النواب الوفديين، لم يكن له صوت مخالف لصوت الوزارة، التى كان القصر يؤلفها ويقيلها كما يشاء.

● كان القصر إذن هو الذى يحكم. ولكن إذا لم يكن رجال القصر ملتفين حول ملك قوى، فلابد أن يختل نظام الحكم. فالأوتوقراطية الملكية أيضًا لها نظامها وشروطها.

● كان لابد للقصر والفئات التى تعمل باسم القصر أن تعتمد على قوى جديدة تساعد على استقرار النظام، وفى مقدمة هذه القوى: الجيش، الذى أخذ عدده يزداد بسرعة، كما كان يتمتع بامتيازات مادية تفوق المستوى العادى للفئات

المهنية الأخرى. لسنين طويلة بدا أن الجيش هو الممثل الحقيقى للملك والحارس القوى للنظام. أذكر أنه اخترع عيد قومى سمى يوم الجيش، وأن شعار الجيش: الله. الوطن. الملك، عدل بحيث أصبح: الله. الملك الوطن.

● كان الأزهر حليفًا تقليديًا للقصر فى صراعه ضد الوفد، ولكن جماعة الإخوان المسلمين بدأت تستقطب تأييدًا شعبيًا، فحاول القصر احتواءها.

● أظهر الحكم النازى فى ألمانيا أثر الدعاية فى دعم نظام الحكم وساعد القصر على ذلك دخول الإذاعة تحت سلطة الدولة. وأصبح هذا الجهاز الجديد ملكيًا مائة فى المائة. وفى داخل أروقة الإذاعة كانوا حين يتكلموا عن «العيد» فإنما يعنون ١١ فبراير، عيدميلاد الملك . ودعم القصر صحفًا جديدة تعتمد على الأخبار المثيرة، وكاد المقال التحليلى يختفى نهائيًا. وكانت هناك كلمة مشهورة تروى عن جوبلز وزير الدعاية فى عهد هتلر: «استمر فى تكرار الكذبة، يقبلها الناس على أنها حقيقة». فأصبح لصحافة الجديدة فى مصر شعار مماثل: «أن كلبًا عض إنسانًا، ليس هذا خبرًا، أن إنسانًا عض كلبًا، هذا هو الخبر».

كنا نرى مظاهر هذا كله، نحن المصريين العاديين، ونعرف أن تغييرًا ما لابد أن يحدث. ولكن أى تغيير؟ دعنى أروى لك بعض التفاصيل:

* فى سنة ٣٧ أو ٣٨ بدأ الاحتفال بيوم الجيش داخل الحرم الجامعى.

* فى السنة نفسها، أو التى تليها، بدأ الجيش مهمه حفظ النظام فى الجامعة. وأتذكر أن كردونًا من الجنود، تحت إمرة ضابط، كان يقيم حاجزًا بين سور الجامعة وسور حديقة الأورمان، من جهة الدقى. وكنا عددًا من الطلاب، بيننا محمد عبدالستار العزونى، وهو شاب سريع الغضب، فدار بينه وبين الضابط حوار حاد، فقال الضابط:

- أتعرف من وضع هذه النجمة على كتفى؟ فابتسم العزونى هازئًا، وقال:

- طبعًا أعرف. ولكنها لعبة قديمة، فلن أقول لك الكلمة التى تريدها لتدخلنى السجن.

كم تمنيت، ولحنى بفمى | صوت قُمْرىٍّ بديع النغَم!
صوت قمرىٍّ ينادى إلفهُ | بدعاءٍ عبقرىٍّ مُلهَمِ
فسرى فى جُنحِ ليل دامسٍ | عارفًا مهواه بين الأنجمِ
وتلقاه حبيبٌ شاردٌ | سادرٌ فى شجوهِ المُكتَتَمِ
عرف اللحنَ فحيًا مقبلاً | وحبيبى أخطأته كَلِمى!

ماحاجتى...؟

ماحاجتى والحلم ملء مشاعرى | أن أستميل شوارد الأحلام؟
دنياى من نورٍ وريحانٍ، فما | بغياىَ دنيا لهفةٍ وأوامِ؟
لأرَيتنى، والقلب يشهد معجبًا | ما لم تطف بخياله أوهامى
آنست موحشها، ورضت شتيتها | وجلوت فى روض الصبا أيامى
فليهجر النومُ العيونَ، فما بنا | إن صدَّ من جَزَعٍ والاتِّهمام!

***

ما حاجتى والشعر ملء خواطرى | للوزن والإيقاع والأنغامِ
الكون أجمع شاعرٌ مترنِّمٌ | يهفو إلى سر الوجود السامى
الزهر والنهر الغرير ومهجتى | نغمٌ يطير بليله المترامى
والضوء موسيقى ترفّ على هوى | لم يختلط من طهره بأثامِ
مرّى يديك على فؤاد خافقٍ | ينطق بتغريدٍ وحُلْوِ بغامِ!

***

ما حاجتى والخمر تسرى فى دمى | أن أسعد الشكوى بأعذب جام؟
طربت لنشوتها خبيئة حسرتى | ونسيت فى إشعاعها آلامى
خذ نديمُ الكأس! إنك لاعبٌ | ما السُّكْر إلا خمرتى ومُدامى
عنى أباة العيشِ! إنى راغبٌ | فى العيش، لا عزمى ولا إرغامى
أنى إكتفيت! وحسب راجٍ طامعٍ | دنيا من الإحساس والإلهام!

***

القلب واللسان

إذا العاشق المتبولُ أفشى لسانَهُ ... ضمير الهوى، لم يبق فى قلبه حبُّ
هو الطمع المخبولُ يجتاح قلبَهُ ... وإنك عندى حيث لايطمع القلبُ

هوان

حيّرتنى بين حاليك ظنونى ... أكذا فعل الهوى بالعاشقينِ؟
لست أشكو زمنًا ضيعتهُ ... بين شجو واكتئاب وأنينِ
لست أشكو منهلاً إن جئتهُ ... كان نارًا من شراب الخاطئين
بيد أنى جئت أشكو لوعتى ... وهوانى وضياعى وحنينى

***

يازمان الشعر! هل بان الصبّا؟ ... إن قلبى ليس بالراعى الخئونِ
آه من ذكرى شبابٍ كلما ... خطرت واريت وجهى بيمينى
خفق النور بعينى خفقةً ... أبصرتنى طلعة الحق المبينِ
ظهّر الحرمان نفسى، فانثنت ... روحى الظمأى بعز القانهينِ
ورأيت العالم الأثم فى ... حمأة الذل فباركت سكونى

***

إيه أخت الشقا! يا محنتى ... ونعيمى وعذابى وفتونى
أملال ذاك ما تبدينهُ ... أم نلهيت بحبى وجنونى
أم كذا عهد الهوى يا جارتى ... كلما بعتك نفسى لم تصونى
فإذا صنت الهوى خاتلتنى ... وعرضت السحر والفتنة دونى
ويح نفسى! ما تراها فعلت! ... هنتُ حتى لم أجد من يشترينى!

***

إيه يـا أخت الـشـقـا، يـا صـبـوتى، يـا نـعـيـمى وعـذابى وفـتـونى

فـتـنـة أنت لـعـمـرى! فـتـنـةٌ أخلـد الـقـلب إلـيـهـا كـالـسـجـين

لا تـبـيـنـى عن عـيـونى لحـظـةً! إنمـا يـحـزن قـلـبى أن تـبـيـنى!

إنـنى أخـشى عـلى نـفـسى يـدًا فى ظلام الـبـعـد لاتـدرى شـجـونى

فـظـة بـاردةٌ جـبّـارةٌ تـأخـذ الـسـاعـة منى بـالـوتـينِ!

عدت وعدنا

يا أخى عدت وعدنا... والتقينا
فى رحاب الفكر والعيش خيالْ
فى ظلال الكأس والفكر خبال
فى قتام اليأس والدنيا مِحوال
عدتَ يا صاحِ وعدنا... والتقينا

فكرة، كم هلّل القلب لها — هل تراها فى أفانين الذِّكَر؟
عانقتها الروح فى نشوتها — ورأتها العين فى شتى الصور
ومنحناها شبابًا زاخرًا — وحماسًا لايبالى بالقدَرْ
أين منا الآن هاتيك الرؤى؟ — ذهبت والعمرُ ولىَّ وغبر!

وإذا نحن صريعا الذكرياتْ
سخرت منا أكاذيب الحياةْ
فى مساء عابس الصفحة شاتْ
عندما عدت وعدنا... والتقينا

احتراق

أبـعـدى الـنـار! دعـيـنـى أحـتـرقْ ... مـا لـعـيـنـيك وذا الـقـلب الـشَّـبقْ!
إن فى صـدرى لـهـيـبًـا عـاصـفًـا ... جـائع الـذرّات، بُـيْـلى من عـشقْ
انت غـصنٌ نـاعم الأفـواف لا ... يـعـرفُ الحـرمـان، ريّـانٌ ورِقْ
أنت نـور نـاعم الأطـيـاف، من ... فـرحـة الأكـوانِ، وضّـاعٌ، ألقْ
وأنـا الـضـائع فى هـذى الـدّنى ... ذرّةٌ من جـوهـرٍ نـابٍ، قـلقْ
اسـألى ربَّك عـنـى، تـعـلـمى ... أنـنى عـبـدٌ من المـولى أبِق
ضلَ مـسـراهُ، وأمـسى تـائـهًـا ... حـائـرًا، مـسـتـخـبرًا، لـولا يَـثِق!
فـدعـيـنـى، واسـمـلـمى أنت، ولا ... تـقـربـينى! فـوشـيـكـا أمـتـحق!

لوعة

قُلْ لـكـأس شـاق عـيـنىّ سـنـاهـا ... وهـفـا الـقـلب إلـيـهـا، واشـتـهـاهـا
فـيك يـا كـأسُ أفـاريق المُـنى ... وربـيع الـنـفس لم تـنـدب صبـاهـا
أشـتـهـيـهـا، فـإذا مـسّت فـمى ... شـرقت روحى، وعـادت بـصـداهـا
وهى الـكـأس بـكـفَّىْ ظـامئ ... لاهث الأنـفـاس، لايـبـغى سـواهـا
وبـحـهـا إن رامـقـتـهـا أدمـعى ... ثم غـامـت بـين عـيـنىَّ رؤاهـا!

***

يـا أخى مـالـذة الـعـيش لـديـنـا؟ ما الصبًّا، والحسنُ، والصبوة منا؟
هـذه نـفـسى غـدت لاتـشـتـهى من به بـالأمس هـمـنـا، وجُـنـنّـا
نـحن فى سـفْـر الـهـوى أسـطـورةٌ أدرك المحـروم مـنـهـا مـا تـمـنّى
لاتـسـلـنى عن رجـائى فى غَـدٍ مـا رجـائى كـلـمـا المقـدور ضَـنّـا؟

غام أفقى، وانثنى الطرف الحسيرْ
والـتوى الـدربُ وأعـيـانى المـسـيـر
وأنـا أمـشى، بلا صـبـح مـنـيـر
ذا طـريـقى.. فـإذا شـئت مـضـيـنـا!

فكواقيودى

فكوا قيودى، فقد أزرى بى الأسرْ   وقد تصبّرْتُ حتى عزّنى الصبْرُ
يا ظالمىَّ إذا أودعتمو جسدى   سجن التراب، ووارى أعظمى القبْرُ
فلى على الدهر أفكارٌ مخلَّدةٌ   لايزهق الفكر حتى يزهق الدهر
وما أبالى بأوراق مسوَّدة   كتبتُ، أو يزدهينى القول والشعر
ففكرةٌ فى سماء الروح عاريةٌ   تبقى، ويمحو البلى ما خطه الحبرُ
أشعلتُ نارى فى فجر الصبًا، خَرقًا!   ما أروعَ النارَ يذكيها فتىً غرٌّ!
ألقمتها حطبَ الوادى، فهيجها،   فما يخفُّ لها وقْدٌ ولاحرُّ
وحين أفزعت الرائين وانتفضتْ   محمومةً، ودعا من هولها الطيْرُ
حملتُها فى دمى، غرثى ، مدمَّرةً،   مقرومةً، يتقيها القوُّ والحرُّ
وسرت أثقل أهل العالمين خُطىً،   فضاق عن خطواتى السهلُ والقفْرُ
وازورَّ عنى دعاة الزور، وائتلفوا   فكلهم أشوسُ الألحاظ مُغيَرٌّ
يانفسُ، بعض الذى قاسيتُ يرعبنى   يا نفس كاد يولىَّ بالشجى العمْرُ

***

فكوا قيودى، فقد ناءت بحاملها، واستعبرتْ رُغبٌ منهمومة حُمْرُ
فكوا قيودى، فما ظلمى بنافعكم أودى شبابى، فلا أمرٌ ولا خَمْرُ
فكوا قيودى، فقد أزرى بى الأسرُ وقد تصبّربُ حتى عزّنى الصبْرُ

***

سير وتراجم

قصص حياة كتبها أصحابها أو كتبها آخرون سعيًا إلى فهم أعمق للذات الإنسانية فى ضعفها وقوتها، ورصدًا لتجاربها التى منحتها القدرة على الإبداع الإنسانى فى صوره المتنوعة.

العيش على الحافة

«اصطفيت من نفسى رفيقًا، ولكن رفيقى أصبح سجانى .. سجنى الروحى كاد يقتلنى .. لم يبق فى الدنيا شىء يشوقنى، لم يبق فى الدنيا شىء ينادينى .. خواء العالم من حولى زادنى وحشة، بعقلى كنت أرى وفى أعماقى كنت اختنق».

حوار شجى وشجن يصور به شكرى عياد حلمه الدائم بالحرية، وينهى به سيرته الذاتية التى سطرها رغم تأكيده لأنها لا تستحق أن تكتب، وسماها ذلك الاسم لأنه أراد تلك الدرجة من الصدق التى تسبق الصمت مباشرة، وتقع على الحافة بين الصمت والكلام.

شكرى محمد عياد (١٩٢١ - ١٩٩٩)

ناقد وقاص وأستاذ جامعى، عمل مدرسًا بمدارس وزارة التربية والتعليم، ثم انتقل إلى مجمع اللغة العربية محررًا عام ١٩٤٥، وانضم إلى هيئة التدريس بجامعة القاهرة عام ١٩٥٤، ثم عين أستاذًا لكرسى الأدب الحديث فى قسم اللغة العربية ١٩٦٨، وعميدًا لمعهد الفنون المسرحية ١٩٦٩. له العديد من الدراسات النقدية والكتابات الأدبية، وقد حصل على جائزة الدولة التقديرية للآداب ١٩٨٨، وجائزة الكويت للتقدم العلمى ١٩٨٨.


ISBN# 9789772071647
6 221149 023635

٢ جنيه

